وزارة الثقافة

دماء ودموع

عيسى السفري

رقمنة

وزارة الثقافة
Ministry of Culture

دِماءٌ ودُموعٌ

تأليف: عيسى السَّفري

صدرت الطَّبعة الأولى عام ١٩٤٧
عن مطبعة فلسطين الجديدة في يافا

وزارة الثقافة الفلسطينية
سلسلة الموروث الثقافي
اسم المؤلف: عيسى السَّفري
اسم الكتاب: دماء ودموع
الطبعة الأولى: ١٩٤٧ عن مطبعة فلسطين الجديدة في يافا

الإشراف العام: عبد السَّلام عطاري
مراجعة وتدقيق: شادية الخطيب - رشيد عِناية
تصميم الغلاف: فاطمة حسين

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب، أو أي جزء منه، أو تخزينه في نطاق استعمال المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذنٍ مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system or transmitted in any form or by any means, electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without prior permission of the publisher.

فلسطين
www.moc.pna.ps

دماءٌ ودُموعٌ

عيسى السفري

دماء و دموع

« من المبادى الاولية في فن السياسة الحرة
ان خلف كل اضطراب ظلامة !... »

أنطوان برترام
قاضي قضاة سيلاف

الطبعة الاولى

الحقوق محفوظة

الغلاف الأصلي للكتاب

تقديم

سيادة الرَّئيس محمود عبَّاس «أبو مازن»

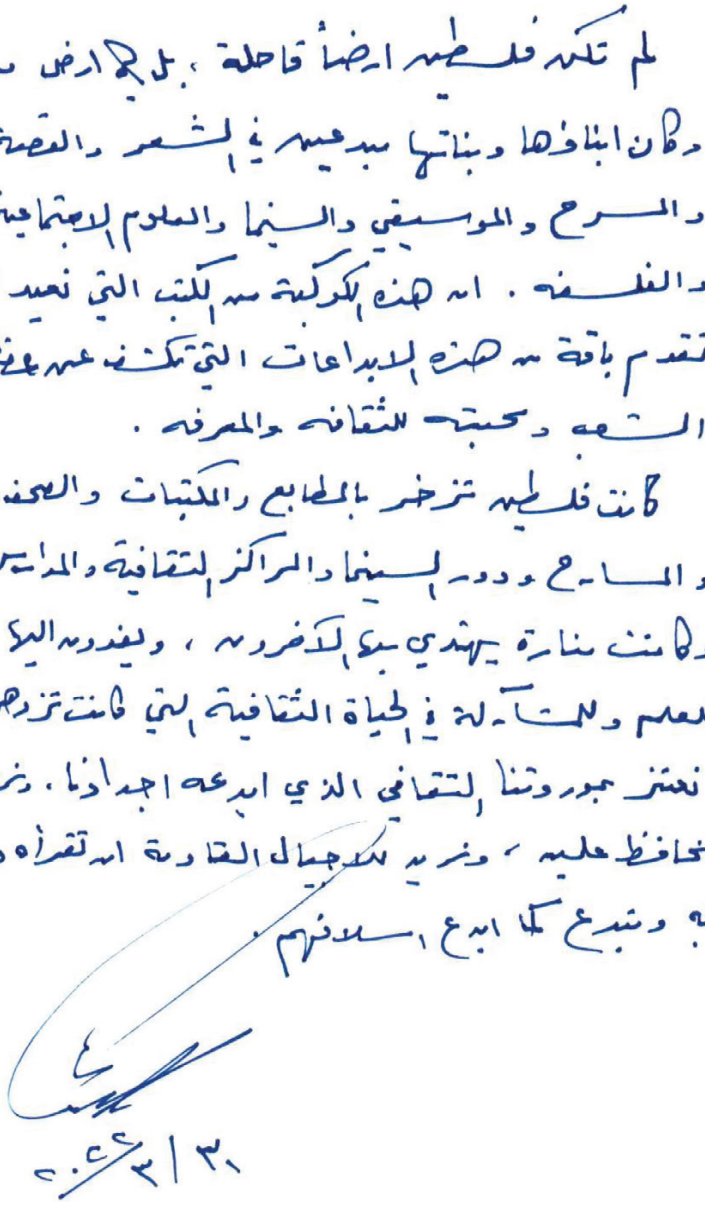
لم تكن فلسطين ارضاً قاحلة، بل كانت ارض معطاءة وكان ابناؤها وبناتها مبدعين في الشعر والقصة والرواية والمسرح والموسيقى والسينما والعلوم الاجتماعية والفكر والفلسفة. انه لهذه الكوكبة من الكتب التي نعيد اصدارها نقدم باقة من هذه الابداعات التي تكشف عن عظمة هذا الشعب وحبه للثقافة والمعرفة.

كانت فلسطين تزخر بالمطابع والمكتبات والصحف والمجلات والمسارح ودور السينما والمراكز الثقافية والمدارس والمعاهد وكانت منارة يهتدي بها الكثيرون، ويفدون اليها طلباً للعلم والمعرفة في الحياة الثقافية التي كانت تزدهر بها.

نعتز بجذورنا الثقافي الذي ابدعه اجدادنا. ونريد ان نحافظ عليه، ونريد لكل جيل قادم ان تقرأه وتعتز به وتبدع كما ابدع اسلافهم.

٢٠٠٥/٣/٣٠

المؤلِّف عيسى السَّفري

الإهداء

إلى

فِلَسطين

نواة الوحدة العربيّة

مهوى أفئدة العرب والمسـلمين

المثل الذي يُحتَذَى في تحطيم قيود الذلّ والاسـتعباد

أهدي هذا الكتاب

مقدِّمة الكتاب

يـوم ١٩ نيسـان مـن سـنة ١٩٣٦ هـو يـوم مـن أيـام العـرب المجيـدة في تاريـخ فلسـطين إذ دوى صـوت القـدرة «أن أفيقـوا أيهـا العـرب فالخطـر مهددكـم!» هـو اليـوم الـذي وحـد كلمتنـا بعـد تفرقهـا، وألـف بـين قلوبنـا بعـد تنافرهـا، وجعلنـا عائلـة واحـدة، بعـد أن كنـا بيتـا منقسـماً عـلى نفسـه!

هـو اليـوم الـذي اقـترن فيـه القـول بالعمـل، وحـل فيـه الجـد محـل الهـزل! هـو اليـوم الـذي أوحـى اللـه فيـه إلى الكاتـب والفـلاح والموظـف والتاجـر والعامـل والطالـب والى كل فـرد مـن أفـراد الأمـة أن يقـوم بنصيبـه في إنقـاذ فلسـطين مـن خطـر الاسـتعمار الإنكليـزي والغـزوة الصهيونيـة!

أمـا نصيبـي مـن هـذا اليـوم العظيـم فـكان مقـالات متعـددة، نـشرت في مناسـبات مختلفـة، ضمنتهـا كتـابي هـذا الـذي دعوتـه «دمـاء ودمـوع» ذلـك لكـثرة مـا أريـق في هـذه البـلاد مـن دمـاء، ووفـرة مـا هطلـت عيـون أهلهـا مـن دمـوع!

فـإذا مـا ذكرنـا هـذا اليـوم فإنمـا نذكـر نعمـة اللـه علينـا. أليـس هـو القائـل سـبحانه:

«وَاذْكُـرُوا نِعْمَـتَ اللَّـهِ عَلَيْكُـمْ إِذْ كُنتُـمْ أَعْـدَاءً فَأَلَّـفَ بَـيْنَ قُلُوبِكُـمْ فَأَصْبَحْتُـم بِنِعْمَتِـهِ إِخْوَانًـا وَكُنتُـمْ عَـلَىٰ شَـفَا حُفْـرَةٍ مِّـنَ النَّـارِ فَأَنقَذَكُـم مِّنْهَـا»

وإني أرجـو أن أكـون قـد وفقـت في تدويـن هـذه الذكـرى المقدسـة. واللـه حسـبي ونعـم الوكيـل.

عيسى السَّفري

جنيف بلد المتناقضات

صيف وشتاء على سطح واحد

«في مقاطعة جنيف بسويسرا قانون قديم لا يزال نافذًا حتَّى الآن، وهو يحرِّم على اليهود دفن موتاهم في المقاطعة، فيلجأون في ذلك إلى اجتياز الحدود الفرنسيّة، حيث لهم فيها جبَّانة خاصَّة»

قانون غريب، هذا الذي يحرم دفن موتى اليهود في مقاطعة جنيف. وغرابته ليست في كونه نوعاً جديداً من أنواع اضطهاد اليهود في أوروبا، بل لان القانون من صنع جنيف، وجنيف - كما يعلم الجميع مركز عصبة الأمم، حاملة لواء العدل، ونصيرة الشعوب الضعيفة!

ومعلوم أن عصبة الأمم لم تتخذ جنيف - بعد الحرب العظمى - مركزا لاجتماعاتها، دون عواصم أوروبا كلها، إلا لأنها وجدت في جنيف المثل الأعلى الذي يجب أن يحتذى في تقديس حرية الشعوب والدفاع عن حقوق بني الإنسان! وقد أصبحت كلمة «جنيف» مرادفة لكلمة «عصبة الأمم» في هذه الأيام. وحين يقال جنيف، يفهم الناس الدول التي يجتمع فيها باسم العصبة، لتوزيع العدل على جميع الناس.

ويكفي العرب من مهزلة هذا العدل أن يعلموا بأن الاثنتين والخمسين دولة، التي تتألف منها عصبة الأمم، هي التي مزقت وحدة بلادهم، وأنكرت عليهم حق الحياة، وجعلت أهم بقعة فيها - وهي فلسطين - لقمة للاستعمار الصهيوني - الإنكليزي.

فجنيف، التي تذوب حنانا وعطفا على اليهود، وتجود بهجرة أحيائهم الى فلسطين، هي جنيف التي تبخل على اليهود بدفن موتاهم في

تربتها. هكذا يكون في «جنيف» صيف وشتاء على سطح واحد!

وحكاية الصيف والشتاء تقول: كان لامرأة ابن وصهر ينامان على سطح البيت، ففي ذات ليلة صعدت المرأة إلى السطح فوجدت أن غطاء صهرها لا يقيه شر البرد، فنزعت الغطاء عن ابنها وألقته فوق صهرها خوفا عليه. فاستيقظ ابنها – وقد آذاه البرد - وسألها: «ما هذا يا أماه؟ . . .» فقالت «خفت على صهرك من البرد» فقال: «صيف وشتاء على سطح واحد؟ . . .» وذهب هذا القول مثلا.

***

جنيف تخلق مبدأ تقرير المصير، وجنيف تخنقه في مهده! جنيف تنكر التسلح، وجنيف تشجع عليه! جنيف تستفظع احتلال إيطاليا للحبشة[1]، وجنيف تحبذه!

جنيف تضمن سلامة استقلال النمسا[2]، وجنيف تصادق على هدمه!

جنيف تؤلف لجنة عدم التدخل في شؤون إسبانيا وجنيف تمد الفريقين المتحاربين فيها بالسلاح! [3]

جنيف تستنكر اضطهاد اليهود في أوروبا، وجنيف تستسيغ محو العرب من فلسطين!

جنيف تفتش عن وطن لشعب لا وطن له، وجنيف تحكم على شعب بأن يكون بلا وطن!

---

١ أُعلِنَت الحرب الإيطاليّة - الحبشيَّة في ٣ أكتوبر سنة ١٩٣٥، وانتهت بعد ستَّة أشهر باحتلال الحبشة والمناداة بملك إيطاليا امبراطورًا عليها.

٢ ضُمَّت النّمسا إلى ألمانيا في ١٣ آذار سنة ١٩٣٨.

٣ نشبت الحرب الإسبانيَّة الأهليَّة يوم ١٧ تمُّوز ١٩٣٦ بين الثُّوَّار الوطنيِّين بقيادة الجنرال فرانكو، وبين الحكومة الشُّيوعيَّة فيها.

إنَّ جنيف:

الصَّادقة - الكاذبة!

الظَّالمة - العادلة!

الضَّاحكة - الباكية!

الجادَّة - الهازلة!

القويَّة - الضَّعيفة!

المحلِّلة - المحرِّمة!

قـد أصبح يصدق فيها قوله تعالى:

«وَإِذَا أَرَدْنَـا أَن نُّهْلِـكَ قَرْيَـةً أَمَرْنَـا مُتْرَفِيهَـا فَفَسَـقُوا فِيهَـا فَحَـقَّ عَلَيْهَـا الْقَـوْلُ فَدَمَّرْنَاهَـا تَدْمِـيرًا»

صدق اللهُ العظيمُ

من نتَّهم

«كانت سنة ١٩٣٥ أخطر ما عرفه العرب في تاريخ جهاده. فقد انحلّت لجنتهم التنفيذيَّة بموت الطَّيِّب الذّكر المرحوم موسى كاظم باشا الحسيني رئيسها. وتطاحن الزُّعماء من بعده على الرِّئاسة، ونشط السَّماسرة والمُلّاكون في بيع أراضيهم من اليهود، وكان موقف الصَّحافة العربيَّة من هذه الأخطاء موقف المتفرِّج على رواية تمثيليَّة، وفيما يلي وصف دقيق للحالة:

الصّهيونيَّة

في ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ وُعِدَ اليهود بوطن لهم في فلسطين، وكانت صاحبة الوعد بريطانيا العظمى.

منذ ذلك التاريخ ابتدأ النزاع بيننا وبينهم. بين اليهود المقيمين في فلسطين، والذين هاجروا إليها بحكم الوعد المشؤوم.

تطور النزاع إلى كراهية شديدة للصهيونية، ظنا منا بأنها أصل البلاء!

ظلت سياستنا الوطنية متجهة إلى مقاومة اليهود اثنتي عشرة سنة، نشبت خلالها ثورات ثلاث، انتهت بسقوط ضحايا منا ومنهم ... تطلعنا إلى ما انتقته سياستنا هذه فكان لا شيء! نظرنا في رصيد الحساب فألفيناه صفرا! وظل اليهود يهودا، وظل الوعد وعدا!

جهود تضيع فمن نقاوم، ووطن يذهب فمن نتَّهم؟

السماسرة

عدنا إلى النفس نحاسبها، فكنا في حسابنا مخطئين. مخطئون في جهود صرفناها في مقاومة اليهود، بينما في حفظ الأرض كان يجب أن تُصرَف، وفي الضن ببيعها للغريب كان يجب أن تكون! فهل وطن بلا أرض؟ وهل

شـعب بـلا وطـن؟ عـلى السـماسرة ثرنـا، إلى أصحـاب الأرض تضرعنـا، فـما أفـاد هـذا ولا ذاك! لأن ثورتنـا عـلى السـماسرة لم تقـرن بالعمـل، وتضرعنـا إلى أصحـاب الأرض لم يسـعف بالمـال! وظـل السـماسرة يسـمسرون، وظـل أصحـاب الأرض، أرضهـم يبيعـون!

جهـود تضيع فمـن نلوم؟! وطن يذهب فمن نتَّهم؟!

الحكومة

شـعرنا، بعـد طـول الجهـاد، بفشـل سياسـتنا. أدركنـا عقـم الأسـاليب التـي اسـتخدمناها في اتقـاء الخطـر! تركنـا الأصـل، وتمسـكنا بالفـروع.

فالذنـب ليـس ذنـب اليهـود، بـل ذنـب مـن وعـد اليهـود، وفتـح لهـم أبـواب البـلاد لهجـرة مشروعـة وغـير مشروعـة! فلـولا الوعـد مـا كانـت الهجـرة، ولـولا الهجـرة مـا كان بيـع الأرض!

أدرنـا الدفـة! وأبدلنـا سياسـتنا بسياسـة أخـرى، هـي سياسـة اللاتعـاون مـع الحكومـة. قمنـا بمظاهـرات داميـة احتجاجـا عـلى الهجـرة فاصطدمـت فيهـا سياسـة الحكومـة المسـتندة إلى القـوة، بسياسـة الشـعب المسـتندة إلى الحـق فكانـت الغلبـة للقـوة!

وظلّ اليهـود يهودًا، وظلَّت المهاجرة مهاجرةً

جهـود تضيع فمـن نلوم؟! وطن يذهب فمن نتَّهم؟!

الصّحافة

كانـت جرائدنا في جميع هذه الأدوار متفرِّجة

تسـاير الأمور، تداهن وتداجي!

تغضّ النَّظر عن السّمسـار، وتسـكت جبنًا عن بائع الأرض!

لا تقـول للخائـن أنت خائن، ولا للمجرم أنت مجرم!

تُسـقِطُ من تشاء، وترفع من تشاء!

تطبِّـل لهذا وتزمِّر لذاك!

حار الشَّعب في أمره!

نشـدَ الزَّعيم فلم يجده، طلب المنقذ ففاته!

وبالرّغـم مـن هذا كلّه، ما زالـت جرائدنا تضلِّل، وما زال قرّاؤها يؤمنون!

جهـود تضيع فمـن نلوم؟! وطن يذهب فمن نتَّهم؟!

الزَّعامة

في هـذه الأزمة الخانقـة، تعود الزَّعامة للتَّنافر!

وفي سـاعات هذا الظرف العصيب، تميل العائلات إلى التطاحن والاحتراب!

شـعب يضحي وزعامة تعبث!

زعامة ترقص على أشـلاء القتلى، وعلى دماء الشـهداء تساوم!

تظهـر أمـام النـاس بثـوب البطولـة، وأمـام منافعهـا الخاصـة، حقـيرة ذليلـة تبـدو!

أيتها الزعامة العابثة!

دعوتنـا إلى الإضراب فلبينـا، وفي تأييدك بذلنا الأرواح!

ثقتنا التامة أوليناك فأهملتها، شـؤوننا الماسـة أودعناك فتاجرت بها!

ليـس مـن تسـتصرخينه بعـد الآن فيجيـب، وليـس مـن تدعينـه للتضحيـة فيلبـي!

ثرنـا عـلى اليهـود، وعـلى السَّـماسرة، وعـلى الحكومـة، أمـا ثورتنـا اليـوم فعـلى الزعـماء!

جهـود تضيع فمـن نلوم؟! وطن يذهب فمن نتَّهم؟!

توما لا يؤمن!

«ذكرى يوم من أيَّام الإضراب العظيم في البرّ والبحر، الذي أعلنت العرب في فلسطين في ١٩ نيسان سنة ١٩٣٦؛ احتجاجًا على السِّياسة الشَّاذَّة القائمة في البلاد. هذا الإضراب التَّاريخيّ الذي دام ١٧٦ يومًا»

هذه صحيفة أخرى حمراء، في تاريخ فلسطين. نكتبها في جو يسوده الإرهاب، والإضراب شامل البلاد بأسرها.

مناورات يقوم بها الجند تثير النفوس، ومظاهرات من الشعب لا تنتهي إلا بضحايا!

خلت المدارس من طلابها، فاحتلها الجند. وغصت السجون بالمحكومين، ففقدت قدرتها على الاستيعاب!

نزل المرء إلى المدينة، وهو لا يضمن عودته إلى البيت محمولا على رجليه!

لا تدق الساعة السابعة أو الثامنة، إلا والسكون الرهيب يغمر المدينة كلها!

فقدت البيوت مسراتها، وأصوات الفرح لم تعد تسمع فيها!

هان على الناس كل شيء حتى نفوسهم، ومستقبلهم ألقوه في قبضة القدر!

***

نسـطر هـذا لا للشـكوى، فالشـكوى سـلاح الضعيـف وإنمـا هـو وصـف لحالـة ألفناهـا، وحـوادث لكـثرة وقوعهـا لم تكـن لدينـا بالـشيء الجديـد!

صرنـا نعتقـد بالانتـداب أن هـذي هـي مهمتـه، وأن أعـمال الـوصي هكـذا يجـب أن تكـون! صراع بـين شـعبين مختلفـين عـلى وطـن واحـد، وبـين قوميتـين متباينتـين عـلى أرض واحـدة!

عـلى هـذا المحـور الأعـوج تـدور أعـمال المنتـدب، وعـلى هـذا الـصراع المخيـف تـشرف سياسـته الخرقـاء! للطبيعـة قانـون. «لا يمكـن لجسـمين مختلفـين، أن يشـغلا حيـزاً واحـداً، في آن واحـد». ولكـن السياسـة تحـاول - عبثـا - خـرق هـذا القانـون!

إنـه يـوم فاصـل في تاريـخ قضيتنـا هـذا الـذي نحـن فيـه، وآخـر مرحلـة مـن مراحـل جهادنـا!

هـي كأس مـرة، لا بـد مـن شر بهـا اليـوم، حتـى لا نشربهـا في الغـد وهـي أشـد مـرارة!

مـن جعـل الوهـن يتـسرب إلى نفسـه، فهـو ليـس منـا، ومـن خـرج عـلى إجـماع أمتـه فهـو مجـرم! خـير لـه لـو لم تلـده امـه ... إنـه مذنـب، والذنـب في حـق الوطـن لا غفـران لـه!

سـعاة شر، أولئك الذين يروجون الدس تحت قناع الوطنية!

أقيمـوا حولهـم السـدود، كي لا تنتقـل عدواهـم إلى غيرهـم، ولا تـسري في بقعـة مـن بقـاع الأرض!

***

لا نؤمـن بوعـود بعـد الآن، وكـذا بلجـان تحقـق. إن في تلـك كذبـا خدعنـا،

وفي هـذه تضليـل خـدر أعصابنـا.

وفـود تذهـب إلى لنـدن لا خـير فيهـا، ولجـان تـأتي إلى هنـا لا تحقـق الرغبـات!

لا فـرق بـين لجنـة برلمانيـة وأخـرى ملكيـة، كـما لا فـرق بـين كلتـي اسـتعمار وانتداب!

نحـن لا نؤمـن بهـذه ولا بتلك، والمؤمن لا يلدغ من جحر مرتين!

الأمة قالت كلمتها وكفى. هي ليسـت في حاجة إلى شرح أو تفسـير!

إنَّهـا صريحـة كالشـمس، واضحـة مثـل ضـوء النهـار! هـي إرادة أمـة، وإرادة الأمـة فـوق الجميـع!

البلد السَّجين

«أطلق مجهول النَّار يوم ١٨ آب سنة ١٩٣٦ (إبَّان الثَّورة في فلسطين) على ممرّضتين يهوديّتين تعملان في المستشفى البلدي بيافا، فقتلهما. وعقابًا على هذا الحادث، فرضت السُّلطة نظام منع تجوّل على المدينة مدَّة يومين كاملين، فلزم النَّاس بيوتهم من السَّاعة ٨ صباحًا حتَّى السَّاعة ٥ من صباح اليوم التَّالي»

كان فرض نظام منع التجول على سكان مدينة يافا، رجالا ونساء وأطفالا مدة إحدى وأربعين ساعة، من مجموع ساعات يومين كاملين، من أغرب حوادث التاريخ، ومن أعظم بدع قوانين العقوبات المشتركة في العالم كله!

ومدينة كبيرة مثل يافا، تصبح معتقلا لثلاثة وسبعين ألف نسمة، مدة يومين كاملين، هي المدينة الأولى التي يجب أن يضرب بها المثل في التاريخين القديم والحديث!

ولسنا نقصد من هذا المقال، أن نبالغ في غرابة هذا الحدث؛ لأن أحداث فلسطين، في اضطراباتها الحاضرة غريبة كلها. ولكننا نود أن ندرس الحدث المذكور، على ضوء الحقائق، ونسجل منها ما يرى وما لا يرى!

١. ما يرى، أن يأمر حاكم اللواء الجنوبي، بسطرين اثنين من أسطر بلاغ رسمي، فتتحول مدينة يافا كلها إلى سجن كبير مدة يومين كاملين!

وما لا يرى، أن يعتبر الحاكم ثلاثة وسبعين ألف نسمة عربية، شخصا مسؤولا عن مجرم مجهول. وأن يحكم على هذا الشخص بالسجن مدة أربعمائة سنة!

وإذا كنت أيها القارئ لا تصدق ذلك فدونك الأرقام ٧٣٠٠٠ (عدد سكان مدينة يافا) في ٢ (يومي السجن) يساوي ١٤٦٠٠٠ يوما على ٣٦٥ (أيام السنة) يساوي ٤٠٠ سنة.

٢. ما يرى، أن صك الانتداب يفرض على الدولة المنتدبة المحافظة على الحقوق الدينية والمدنية للطوائف غير اليهودية في فلسطين، وهذا كل ما تفضلت به جمعية الأمم على العرب من حقوق!

وما لا يُرى، أن حكومة فلسطين، بفرضها نظام منع التجول على مدينة يافا مدة يومين، قد تعدت على تلك الحقوق وعطلت على ثلاثة وسبعين ألف شخص عربي حرياتهم الدينية والمدنية، التي ينص عليها صك الانتداب!

٣. ما يُرى أن يطيع سكان يافا كلهم الأمر، وأن ينزووا في بيوتهم، وينتهي تنفيذ عقوبة أدبية أنزلتها بهم السلطة!

وما لا يُرى، أن يكون بين الثلاثة وسبعين ألف نسمة عربية، آلاف من أدركهم الوقت، ولم يستطيعوا تدارك قوت يومهم، فباتوا على الطوي. يعكر جو ليلة ذلك اليوم، صراخ الأطفال، وبكاء الأولاد، وآلام الوالدين!

٤. ما يُرى، أن هذا السجن الذي فرضته السلطة على سكان يافا، كان تنفيذا لقانون العقوبات المشتركة!

وما لا يرى، أن ثلاثة وسبعين ألف نسمة، أذلت في وطنها لأجل جريمة وقعت في منطقتهم، إكراما لفتاتين يهوديتين، قتلهما مجرم لم تعرف جنسيته، ولم تثبت السلطة أنه عربي!

وسبحان الذي خلق السماوات والأرض، كل ما يرى وما لا يرى!

القرار الخطير!

«بعد مضيّ خمسة أشهر على الإضراب العام والثَّورة في فلسطين، اجتمعت وفود اللِّجان القوميَّة في القدس، يوم ٢٦ آب ١٩٣٦، لبحث الموقف، فقرَّرت بإجماع الكلمة مواصلة الجهاد حتَّى تنال الأمَّة أمانيها»

اليوم تجتمع وفود اللجان القومية في القدس، لبحث الموقف الحاضر!

اليوم يزحف رجال العرب المسؤولون إلى عاصمة البلاد، للنظر في قضية فلسطين العربية ومستقبلها!

اليوم تتناقل أسلاك البرق القرار الخطير إلى جميع أنحاء العالم!

في هذا الاجتماع القومي التاريخي، ستتجلى إرادة الشعب العربي بأبهى مظاهر الروعة والجلال!

لا أحزاب، ولا عائلات

لا أغراض، ولا نزعات

لا حوار، ولا تردد

بل إرادة وتصميم؛ لأن الأمة هي التي تتكلم!...

اليوم يجتمع ممثلو البلاد، ليضعوا الخطة، ويقرروا

كل سيضع الخسائر أمام عينيه قبل أن يتكلم!

كل سيضع شرف الأمة وذلها في كفتي ميزان، قبل أن يفوه بكلمة!

قد أصبحنا أمام قوى تطغى علينا، وتعمل بلا انقطاع على قهرنا وإذلالنا!

قـد غدونـا فريسـة كـثر المتطلعـون إليهـا، وسـلعة تهافـت الطامعـون عـلى المتاجـرة بهـا!

لا أحزاب، ولا عائلات

لا أغراض، ولا نزعات

لا حوار، ولا تردد

بـل إرادة وتصميـم؛ لأن الأمة هي التي تتكلم!

***

اليوم تسـمو النفـس القوية على كل زعامة، ويرتفع المبدأ

الشريف فوق كل الوجاهات!

اليـوم يسـجل التاريخ كل كلمـة تخرج من فم، فحذار أن تكون إلا حقة!

هناك أسـطورة إسبارطية تقول:

«عـدوان لـدودان كان وطنهـما في خطـر، خرجـا لقتـال العـدو المشـترك. ولما التقيـا في الطريـق قـال أحدهـما للأخـر: هنـا ندفـن عداءنـا القديـم، وبعـد إنقـاذ الوطـن نعـود إليـه!»

إن الوطـن في خطـر. والأمـة تطلـب مـن المجتمعـين اليـوم أن يكـون كل منهـم بطـلا إسـبارطيا مـن هـذا النـوع!

لا أحزاب، ولا عائلات

لا أغراض، ولا نزعات

لا حوار، ولا تردد

بـل إرادة وتصميـم؛ لأن الأمة هي التي تتكلم!

اليـوم تقول الأمة كلتها

فلتكـن مـما يرفـع الـرأس ويبيـض الجبـين! إن الخصـم سـيقرأ مـا في هـذه الكلمـة مـن قـوة أو ضعـف

فـإن قوة، احترمنا وهابنـا. وإن ضعفا، احتقرنا وقضى علينا!

إن لنـا مـن قـوة إيمـان المجتمعـين اليـوم مـا يـزري بمغريـات الخصـم ودسائسـه. ومـن مناعتهـم مـا يحـول دون فتـح ثغـرة في الصفـوف!

لا أحزاب، ولا عائلات

لا أغراض، ولا نزعات

لا حوار، ولا تردد

بـل إرادة وتصميـم؛ لأن الأمة هي التي تتكلم!

أنت أيها الوطني!

يـا من مثل أمتك في هذا الاجتماع!

إن أمامـك جهاد خمس قرن، كله آسٍ وآلام!

قبل أن تقول كلمتك تذكر: شـهداء سـقطوا في ميدان الشرف

أبرياء علقوا على أعواد المشـانق

دورًا عامرة نسفت

حرمة بيوت انتهكت

مؤونة عيال دمرت

تجارة بلاد خربت

طمأنينة نفس فقدت

نسـاء تركن الخدور، وتشردن في الجبال!

أحرارًا في المعتقلات والسـجون

بؤسـاء بين ثاكل وأرمل ويتيم

غرامـات لم تنج منها مدينة أو قرية

تذكر هذا كله ...

تذكر كرامتك قبل أن تتحرك شـفتاك بكلمة!

إن عشريـن عاما تنظر إليـك، وتصغي بلهفة إلى قرارك الخطير!

لا أحزاب، ولا عائلات

لا أغراض، ولا نزعات

لا حوار، ولا تردد

بـل إرادة وتصميـم؛ لأن الأمة هي التي تتكلم!

الحلُّ المعقول!

«اقترحت اللَّجنة الملكيَّة، في تقريرها عن ثورة ١٩٣٦، تقسيم فِلَسطين بين العرب واليهود، فرفض العرب ذلك؛ وحلًّا للمشكلة، طلبوا إلغاء الانتداب وتشكيل حكومة ذاتيَّة يكون اليهود أقليَّة فيها، أمَّا اليهود فقالوا عن هذا الطَّلب: إنَّه حلٌّ غير معقول!»

«أن تكون فلسطين لأصحابها العرب، حل غير معقول!

أن يلغى الانتداب، وتشكل حكومة ذاتية في فلسطين حل غير معقول!

«أن يكون اليهود أقلية في فلسطين، حل غير معقول! فما هو الحل المعقول ... إذن؟

***

أوروبا تضطهد اليهود؟

تصدر كل يوم مراسيم قاسية ضدهم!

تصادر ما يملكون من منقول وغير منقول!

تقاطعهم في تجاراتهم وصناعاتهم!

تحرم عليهم المساواة بالأمم التي يعيشون بينها!

وأوروبا، التي تفعل باليهود هذا كله، وتنكر عليهم أن يكون لهم وطن في بلادها هي نفسها تفتش لهم عن وطن!

ولكن في بلاد غيرها!

***

إنـه عقوق من أوروبا بحق اليهـود. إنه حقد وإنكار للجميل!

أليـس اليهود هم الذين هذبوا العلم؟!

أليـس اليهـود هـم الذيـن رقـوا الإنسـانية بمثلهـم العليـا، وتعاليمهـم السـامية؟! . . .

أليس اليهود هم الذين وطدوا أركان السـلم في العالم كله؟!

***

عشرون قرنا، والشـعب اليهودي يعيش شريدا طريدا!

عشرون قرنا، وهو يحاول (عبثا) العثور على حجر يسـند إليه رأسـه!

عـشرون قرناً، وهـو يفتش عن وطن يأوي إليهم، فلا يجد!

عـشرون قرنـا تنقـضي مـن عمـر العـالم، دون أن يسـتثير الجـود والكـرم والسـخاء العـالم، فيقـدم وطنـا لشـعب لا وطـن لـه!

***

لماذا لا يكون لليهود وطن، والعرب أسـخياء؟

مـاذا دهـى الخلق العربي، حتى يضن عـلى اليهود بتقديم هذا الوطن؟

هـل بلغـت بالعـرب أنانيهـم، أن جعلتهـم يحرصـون عـلى بقـاء وطنهـم لهـم دون سواهم؟

لقـد كاد العـرب أن ينسـوا فضيلـة السـخاء، بتمسـكهم بوطنهـم إلى هـذا الحـد ....

وهـذا مـا نبهـت إليهـم اللجنـة الملكيـة في تقريرهـا، إذ اقترحـت مبـدأ القسـمة الضيـزى حيـث قالـت:

«فـاذا أخذنـا بعـين الاعتبـار، مـا لاحتـمال إيجـاد ملجـأ في فلسـطين مـن القيمـة لآلاف اليهـود المضطهديـن، فهـل تكـون الخسـارة التـي يتكبدهـا العـرب مـن جـراء التقسـيم – عـلى فداحتهـا - فـوق مـا يسـتطيع السـخاء العـربي أن يحتملـه؟»

كلا ... أيتهـا اللجنـة الموقـرة! إن العـرب لا يحتاجـون إلى مـن ينبههـم إلى فضيلـة السـخاء، التـي امتزجـت بدمائهـم

فهم

إذا لم يقنـع اليهـود بحصتهـم الكـبرى مـن فلسـطين، يتنازلـون لهـم عـن فلسـطين كلهـا!

وإذا لم يقنعوا بفلسـطين كلها، فشرق الأردن معها!

وإذا لم يقنعوا بكليهما، فسـوريا أيضا!

وإذا ضاق هذا الوطن عن اسـتيعابهم، فليمتد إلى العراق

وإذا كان هذا السـخاء لا يشـبعهم، فإلى اليمن ونجد!

ولكـن . . .. لنا بعد هذا رجاءان:

الأول: أن يرضـوا، فإن رضاهم عزيز علينا!

الثـاني: أن يقبلونـا عندهـم، سـقاة مـاء، وحـمالي حطـب! وإذا لم يقبلـوا بهـذا، لجأنـا الى الصحـراء، ونصبنـا خيامنـا فيهـا!

أمـا إذا تـأذت عيونهـم (حينئـذ) مـن رؤيـة خيامنـا في الصحـراء، فنحـن مسـتعدون أن نغـادر الجزيـرة كلهـا!

وهذا هو الحل المعقول!

بارمينيو!

«في معركة نشبت بين الإسكندر الكبير ودارا ملك الفرس، في المكان الذي يُسمَّى اليوم باسم الإسكندر؛ أي «الإسكندرونة» انتصر الإسكندر وفرّ دارا إلى الجبال.

وفي هذه المعركة غنم الإسكندر مخيَّم الملك دارا، وكانت فيه امرأته، فأرسل إليه دارا كتابًا يعرض عليه فيه أن يقاسمه ملكه.

فقال له صديقه بارمينيو: لو كنتُ الإسكندر لقبلت!

فقال له الإسكندر: وأنا لو كنتُ بارمينيو لقبلتُ؛ ولكنَّ الإسكندر لا يقبل بالنِّصف، ولا يرضيه إلَّا الكلُّ!»

لا تخلو أمَّة من صغار النُّفوس، ضعفاء الإيمان، أمثال بارمينيو، يرضون من الدُّنيا بالنَّصيب الأخسّ. ويوحون إلى أمَّتهم - من حيث تدري ولا تدري - بما يهدم نفوسها ويثبِّط عزائمها.

ويكثر عدد أمثال بارمينيو في كلّ أمَّة مستعبدة، تكافح في سبيل حريتها. فيكونون للغير دعاة قوة، ولأبناء قوم دعاة يأس واستسلام ...

والمخلصون في كل أمة، العامرة قلوبهم بالإيمان، الطامحون إلى المجد، ينظرون إلى من يحول بينهم وبين الحياة الحرة الكاملة، كنظر الإسكندر إلى بارمينيو!

نظرة الرجال لأنصاف الرجال!

***

من المؤسف حقا، أن يكون بين ظهرانينا أمثال بارمينيو، يعظمون من شأن الطامع فيهم، ويصغرون من شأن أمتهم!

يبشرون بالقسمة الضيزى، ويدعون إلى الرضا بنصف الرغيف!

يسـودون صحيفة العاملين، ليدخلوا اليأس على دروس الأمة!

يتظاهـرون بالتأفـف مـن وطـأة الكفـاح، ليجعلـوا النـاس يقنعـون مـن الحيـاة بالخبـز وحـده!

يطعنون وطنية كل إنسـان، لئـلا ينفردوا وحدهم بضعف الوطنية!

يلقحـون الأفـراد بمصـل الخنـوع والضعـة، ليهيئـوا منهـم أمَّـةً لا تصلـح إلَّا للاسـتعباد!

***

نعم

إذا كان فيهـا بارمينيـو واحـد يقـول ويفعـل مثـل ذلـك، فـإنَّ فينـا – والحمـد للـه – مـن يقـول لـه بلسـان الإسـكندر:

«لـو كنـتُ بارمينيـو لقبلـتُ، ولكـنَّ الإسـكندر لا يقبـلُ بالنِّصـفِ، ولا يرضيـه إلَّا الـكلُّ»

بمثل الإسـكندر، لا بمثل بارمينيو، تُبنى الأمم وتعتزّ!

ومن له أذنان للسَّـمع فليُسمِع!

حظُّ الخروف!

«شاهد أعضاء لجنة تقسيم فِلَسطين، في طريقهم من القدس إلى يافا، خروفًا مربوطًا من أطرافه الأربعة، في مؤخّرة سيَّارة صغيرة. فأوقف الأعضاء المحترمون السيَّارة، وحلّوا وثاق الخروف، وأمروا بوقف صاحبه تمهيدًا لمحاكمته!»

هذا ما جرى، وفيه – كما لا يخفي - عظة بالغة، لا نظنها غابت عن أذهان الرجال المسؤولين عن السياسة الشاذة في فلسطين!

إن حيوانا صغيرة مثل «خروفنا» هذا، بالرغم من كونه خلق للذبح ليتغذى بلحمه سكان الأرض من بني الإنسان، كان ربطه من أطرافه الأربعة كافيا لأن يستثير عواطف الشفقة والرحمة في قلوب أعضاء لجنة التقسيم، ويهيب بهم إلى وقف صاحبه لمحاسبته على اقترافه مثل هذه الجريمة الشنعاء!

وصاحب الخروف – كما هو معلوم – أحد أبناء فلسطين العرب، الذين قيدتهم السياسة بقيود من الوزن الثقيل، هي قيود الوطن القومي اليهودي مدة عشرين عاما، ذاقوا خلالها من ضروب القسوة، ما حرمهم نعمة الراحة والاستقرار!

خروف واحد خلق للموت، وجد من يعطف عليه بعد ربطه من أطرافه الأربعة بمدة لا تتجاوز عشرات الدقائق، بينما هنالك مليون إنسان خلقوا للحياة تتناولهم القيود الثقيلة من جميع أطرافهم وكل عضو فيهم، عشرات السنين، وليس من يعطف عليهم، أو من يفتقدهم بكلمة خير!

في البرلمان الإنكليزي يقوم أحد فرسان الصهيونية ويسأل وزير

المستعمرات عن السبب الذي يمنع حكومة فلسطين من حماية معمل يهودي صغير «للجزم» في تل أبيب!

وفي البرلمان إياه، لم يقم نائب حتى الآن، يسأل وزير المستعمرات:

١. ما مبلغ ما فرض على العرب من غرامات؟

٢. ما عدد العرب الذين ذاقوا طعم الحياة في معتقل؟

٣. ما حال أولئك العرب المنفيين في جزر سيشل وراء البحار؟

٤. كم مرة حجزت حرية العرب في أكثر المدن بكاملها؟

٥. كم بلغ عدد العرب الذين علقوا على أعواد المشانق؟

٦. ما عدد بيوت العرب التي نسفت وأحرقت؟

٧. بِمَ تقدر قيمة المؤن والأمتعة التي دمرت في المدن والقرى أثناء قيام الجند بأعمال التفتيش؟

هذا كله لا يحرك شعور العطف على خراف حقيقية، من أمة تعتنق مبدأ الرفق بالحيوان. أما خروف واحد، يقيد على الطريقة القديمة التي ألفها الفلاح منذ ألوف السنين فهذا وحده كاف لأن يهز عاطفة الشفقة في قلوب أبناء هذه الأمة!

فأحر بهذه الأمة التي حلت قيود «الخروف» أن تحل قيود شعب مظلوم، هو وحقوقه أثمن بكثير من حقوق الحيوان!

الصِّين وفِلَسطين!

حرب الأفيون

في تاريخ بلاد الصين صفحة، ولكنها مؤلمة.. صفحة تصم بريطانيا العظمى بعار لا تمحوه الأيام، وجريمة كبرى لا يغفرها كر السنين.

يقول التاريخ:

إن هذه الدولة قد اعتدت على حرية الصين، بدافع الاتجار معها. ولكن الصين لم تكن راغبة في هذه التجارة!

هل تعلم أيها القارئ ما هي؟ إنها تجارة «الأفيون!» هذا ما كان يتجر به الإنكليز في تلك البلاد!

حاولت دولة الصين أن تمنع دخول هذا المخدر اللعين إلى بلادها، محافظة على أرواح رعاياها. ولكن بريطانيا المتمدنة أم تشتت الحسام في وجه تلك الدولة!

لماذا؟ لكي ترغمها على فتح بلادها لتجارة «الأفيون» السم

الذي يزهق الأرواح بالمئات والألوف!

طالت تلك الحرب، وعاهل الصين لا يقبل بالصلح. وقوات بريطانيا العظمى تتوغل في البلاد الصينية، وتنزل بالشعب الصيني المسكين المصائب والأهوال! وقعت هذه الحرب سنة ١٨٣٤-١٨٤٦ وكانت نقطة سوداء في تاريخ الإنسانية!

الوطن القومي

كانت حرب (الأفيون) جريمة القرن التاسع عشر. فانظر الآن إلى جريمة القرن العشرين! في ٧ نوفمبر سنة ١٩١٧ أعطت بريطانيا العظمى تصريحا لليهود بإنشاء وطن قومي لهم في فلسطين

وفلسطين ليست بالبلاد المجهولة في عالم التاريخ، إنَّها بلاد احتلها العرب منذ ثلاثة عشر قرنا، وهم لا يزالون فيها حتى الآن.

إنَّها بلاد أمة عرفت في التاريخ بحضارتها ومدنيتها ولكن بريطانيا العظمى تجاهلت هذا كله، واقترفت جريمة أخرى، عن سابق تعمد وإصرار، ولكن ليس في الصين هذه المرة، بل في فلسطين. وهي جريمة إجلاء شعب أصيل، ليحلّ محلّه شعب دخيل!

حرب الأفيون والوطن اليهودي، حادثان تاريخيان. ها مختلفان في اللفظ ولكنهما يتفقان بالمبدأ والغاية!

وجه الشَّبه بينهما

أدخلت بريطانيا العظمى، قبل مئة سنة، الأفيون إلى الصين بالقوة، بالرغم من إرادة عاهل البلاد. وهي اليوم تدخل اليهود إلى فلسطين بالقوة، بالرغم عن إرادة أصحاب البلاد!

إن خطر اليهود على عرب فلسطين، كخطر «الأفيون» على أصحاب بلاد الصين!

كلاهما سم قاتل!

فإذا كان الأفيون قد أباد سكان الصين إلى حين، فإن الوطن اليهودي في فلسطين - إذا تحقق - أباد سكانها العرب من الآن والى أبد الأبدين!

لقد ظلت حرب الأفيون مدة ١٢ سنة، ثم انتهت بالفوز على أفيون الإنكليز. أما حرب الوطن اليهودي فقد ظلت ٢٠ سنة ولا تزال. وستنتهي - ولا شك - بالفوز على أفيون الصهيونية!

منطق أعوج

قلنا إن لا فرق بين الأفيون والصهيونية، فهما إن اختلفا باللفظ، فلا يختلفان في المبدأ والغاية.

ففي الصين لعبت المادة دورها في حرب الأفيون الإنكليزية ضد الصين، وهنا تلعب المادة نفس الدور في الحرب الأنجلو - صهيونية ضد عرب فلسطين!

هناك سلب نفوس، وهنا سلب أوطان! هنالك هدم أجسام، وهنا هدم كيان!

هناك موت باسم «الأفيون»، وهنا انتحار باسم الصهيونية!

قالوا يومئذ إن منع دخول (الأفيون) إلى الصين، يهدد أركان التجارة الإنكليزية!

ويقولون اليوم إن دخول اليهود إلى فلسطين يسبب الرخاء لها!

منطق أعوج، وامتهان لمبادئ الحق والعدل والإنسانية!

قضيَّة فِلَسطين!

في محكمة العدل الدَّوليّ!

جريمتـان تاريخيَّتـان في تاريـخ الانتدابـات قامـت بهـما دولتـان كبيرتـان: فرنسـا في سـوريا، وإنجلـترا في فِلَسـطين، فتنازلـت الأولى عـن لـواء الإسـكندرونة (في الشَّـمال) لتركيـا، ووهبـت الثَّانيـة فِلَسـطين (في الجنـوب) لليهـود؛ لينشـئوا فيهـا وطنهـم القومـيّ!

وفيـما يـلي محاكمتـان خياليَّتـان لقضيَّتـي فِلَسـطين والإسـكندرونة في محكمـة العـدل الـدَّوليّ:

قضيَّـة عدل عليا رقم ١ -٣٦

في محكمـة العـدل الـدَّوليّ، أمـام المسـتر جـالاشر رئيسًـا والارل ونترتـون والكولونيـل كلفتـون بـرون والمـس فركهسـون أعضـاء.

١- المدَّعـي: عـرب فِلَسـطين، تمثِّلهـم اللَّجنـة العربيَّـة العليـا، ووكيلهـا المحامـي عـوني بـك عبـد الهـادي.

٢- المدَّعـى عليهـا: دولـة بريطانيـا العظمـة بصفتهـا منتدبـةً عـلى فِلَسـطين، يمثِّلهـا المسـتر أورومسـبي غـور وزيـر مسـتعمراتها، والسّـير أرثـر واكهـوب مندوبهـا السَّـامي في فِلَسـطين، وكيلهـما الأدون حاييـم وايزمـن.

***

هـذه القضيَّـة هـي الأولى مـن نوعهـا، وهـي عبـارة عـن طلـب إصـدار أمـر إلى المدَّعـى عليهـما؛ ليبيِّنـا الأسـباب التـي تمنعهـما مـن إلغـاء وعـد بلفـور.

القرار

كانت هذه المحكمة قد أصدرت بتاريخ ١٩٣٦/٠٤/٢٥ قرارًا تمهيديًّا موجهًا إلى كلّ من وزير المستعمرات والمندوب السَّامي في فِلَسطين، بوجوب حضورهما أمام هذه المحكمة (إذا أرادا) ليبيِّنا الأسباب التي تمنعهما من:

١- وقف الهجرة اليهوديَّة إلى فِلَسطين وقفًا تامًّا.

٢- وقف بيع الأراضي في فِلَسطين لليهود.

٣- تشكيل حكومة نيابيَّة.

وفي الجلسة الأولى لسماع هذه القضيَّة، أبرز وكيل المدَّعي بيانًا مؤرخًا في ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ صادرًا من حكومة بريطانيا العظمة، بلسان وزير خارجيّتها المتوفّى اللورد بلفور، وهذا نصّه:

«١- إنَّ حكومة جلالة الملك تنظر بعين الرِّضا والارتياح إلى المشروع الذي يُراد به إنشاء وطن قوميّ لشعب اليهود في فِلَسطين. ٢- ولا يُسمَح بإجراء شيء يلحق الضَّرر بالحقوق الدِّينيَّة والمدنيَّة للطَّوائف غير اليهوديَّة في فِلَسطين. ٣- ولا بالحقوق التي يتمتَّع بها اليهود في البلدان الأخرى، وبمركزهم السِّياسيّ فيها».

وقيل لنا من قبل وكيل المدَّعي، واعترف بذلك وكيل المدّعى عليهما، أنَّ هذا الوعد أُعطِيَ دون استشارة عرب فِلَسطين أصحاب البلاد، كما أنَّ المدَّعي قال إنَّ وعدًا مثل هذا لا قيمة له في نظر القانون الدَّوليّ؛ لأنَّه ينقصه شرط جوهريّ، وهو مصادقة العرب.

وفي الجلسة حضر أمامنا الأدون وايزمن وكيل المدَّعى عليهما؛ حاملًا بيده «مفرقعة» وادَّعى بأنَّ اعتقاده وما توصَّل إليه من المعلومات،

تـدلّ عـلى أنَّ هجـرة اليهـود المنـويّ اسـتمرارها إلى فِلَسـطين، وإطـلاق حريَّـة بيـع الأراضي فيهـا لهـم، إنَّمـا هـما تنفيـذ لنـصّ وعـد بلفـور الصَّـادر في ٢ نوفمـبر سـنة ١٩١٧، واسـتنادًا إلى حـقّ اليهـود التَّاريخـيّ في فِلَسـطين، وثمنًـا لهـذه المفرقعـات التـي اخترعتهـا لبريطانيـا العظمـة في الحـرب الكـبرى.

لا بـد مـن الملاحظـة، أن صلاحيـة دولـة بريطانيـا العظمـى مـن حيـث الفقـرة الأولى مـن وعـد بلفـور، هـي فقـط في إنشـاء وطـن قومـي لليهـود في فلسـطين، لا جعـل فلسـطين وطنـا قوميـا لليهـود.

كـما أن الفقـرة الثانيـة مـن الوعـد تنـص في إنشـاء هـذا الوطـن - عـلى ألا يسـمح بإجـراء شيء يلحـق الـضرر بالحقـوق الدينيـة والمدنيـة لأصحـاب البـلاد.

وقـد اتضـح للمحكمـة، مـن البيانـات التـي قدمهـا وكيـل العـرب، أن إنشـاء الوطـن القومـي اليهـودي في فلسـطين يفـسره زعـماء اليهـود المسـؤولين بمـا يـلي

ليـس مـن الممكـن أن يكـون في فلسـطين سـوى وطـن قومـي واحـد وهـو الوطـن اليهـودي. ومـن المسـتحيل أن تكـون ثمـة مسـاواة في الشركـة بـين اليهـود والعـرب، بـل ينبغـي أن تكـون هنـاك سـيادة يهوديـة حالمـا يـزداد هـذا العنـصر ازديـادا كافيـا.

وقـد ظهـرت غايـة اليهـود هـذه في الحملـة التـي أقاموهـا في مجلـس العمـوم ضـد مـشروع تأسـيس مجلـس تشريعـي في فلسـطين حتـى لا يكـون العـرب أكثريـة فيـه. وكان جـواب وكيـل دولـة بريطانيـا العظمـى أن حكومـة جلالتـه تقـول إن مخـاوف العـرب لا تقـوم عـلى أسـاس ولا مـبرر لهـا. وأنهـا عـلى ثقـة تامـة بـأن في الطاقـة تبديدهـا. وأنهـا مزمعـة عـلى إرسـال لجنـة ملكيـة لـدرس مظـالم العـرب.

إن المحكمة قد فهمت من بيانات رسمية قدمها وكيل العرب، بأن حكومة جلالته سبق لها قبل هذا التاريخ أن أرسلت إلى فلسطين لجانا مختلفة للغرض نفسه، ولكنها لم تعمل بتواصي تلك اللجان. يثبت ذلك:

(١) تقرير لجنة توماس هايكرافت لسنة ١٩٢١، فقد جاء فيه أن بريطانيا العظمى أسست الحكومة الفلسطينية بحسب رغبات الصهيونيين، واتبعت سياسة إنشاء الوطن القومي، ولم ترع مصالح سكان فلسطين العرب.

(٢) تقرير لجنة شو لسنة ١٩٣٠، وهو يشير بإذاعة تصريح جلي بشأن السياسة التي تتبع في المستقبل في أمر هجرة اليهود إلى فلسطين، وإعادة النظر في الإدارة الحكومية وإصلاحها، لمنع الإفراط في الهجرة. وتلفت اللجنة نظر حكومة جلالته إلى أن نفور العرب واستياءهم هو من عدم نيلهم قسطا من الحكم الذاتي، وأن هذا النفور يضاعف الصعوبات والمشكلات.

٣) تقرير جون هوب سمبسون لسنة ١٩٣٠، حيث يقول إن الأراضي التي بيد العرب لا تكفي لسد حاجاتهم، وخاصة إذا ظلت الأساليب الزراعية عندهم تسير على الخط الحالي.

لا يمكن للمحكمة أن تقتنع بادعاء وكيل دولة بريطانيا العظمى بأن مجيء اليهود إلى فلسطين مبني على حقهم التاريخي بوجودهم فيها قبل ألفي سنة. لان هذا الادعاء لا يستحق أي اهتمام. إذ لو ... إذ لو صح ذلك لحق الشعوب الأمم الأخرى التي تقلبت على فلسطين أن يأتوا إليها ويؤسسوا أوطانا قومية لهم فيها!

كما أن المحكمة لم تقتنع برد وكيل دولة بريطانيا العظمى على ذلك،

وهـو أن هجـرة اليهـود إلى فلسـطين تسـبب رخاءهـا وتعمـر أراضيهـا، وترقـي سـكانها. لان فقـر البـلاد لم يتخـذ في أي يـوم دليـلا عـلى وجـوب اسـتعمارها مـن شـعب أقـوى. والتعمـير سـلب العـرب أراضيهـم، والرقـي لم يكـن (حسـب تقريـر حكومـة فلسـطين الرسـمي لسـنة ١٩٣٥) إلا ارتـكاب اليهـود جرائـم. كانـت غـير معروفـة في فلسـطين مـن قبـل. مثـل تزييـف النقـود، وتحطيـم الصناديـق الحديديـة بأسـاليب فنيـة، وتزويـر جـوازات السـفر، والاحتيـال عـلى البنـوك وتهريـب المخـدرات والأسـلحة، عـدا عـن الإباحيـة التـي نـشروا جراثيمهـا في البـلاد والمحكمـة تسـتنكر أشـد الاسـتنكار أن يكـون وعـد بلفـور أعطـي مـن قبـل دولـة بريطانيـا العظمـى ثمنـا للمفرقعـات الجهنميـة التـي اخترعهـا الأدون وايزمـن لهـا، أثنـاء الحـرب الكـبرى، لإفنـاء البشريـة. وتعـد جعـل فلسـطين وطنـا قوميـا لليهـود مـن قبيـل «مفرقعـة»، يقصـد بهـا إفنـاء العـرب في فلسـطين!

وقـد اتضـح لهـذه المحكمـة بـأن العـرب لا يثقـون بأمانـة المنتـدب، ويقولـون إنـه غـير أمـين في المحافظـة عـلى الشـق الآخـر للانتـداب، الـذي ينـص عـلى وجـوب حفـظ حقـوق العـرب في فلسـطين مـن الأضرار. وليـس يسـقط حـق العـرب بالحكـم الـذاتي مـا تدعيـه دولـة بريطانيـا العظمـى مـن عـدم صلاحيـة لهـذا الحكـم. لا سـيما والمحكمـة تحققـت، مـن سـير الدعـوى، أن هـذه حجـة كاذبـة. وأن الغـرض المسـتتر وراء هـذه الحجـة، هـو عـدم إعطـاء حكـم ذاتي، حتـى يصبـح اليهـود أكثريـة في البـلاد، وهـذا مخالـف لنـص المـادة ٢٢ مـن نظـام عصبـة الأمـم وان المحكمـة لتسـتغرب ألا تجـد في هـذه القضيـة تصريحـا جليـا مـن دولـة بريطانيـا العظمـى، يعيـد الطمأنينـة إلى العـرب. إذ لا شـك، أو مـما يـشرف بريطانيـا أكـثر، لـو أنهـا بـدلا مـن أن تـذر الرمـاد في عيـون الشـعب العـربي باسـتعمالها الجمـل الرنانـة والتصريحـات المخـدرة للأعصـاب مثـل قولهـا:

(أ) وجـوب تنفيذ صك الانتداب

(ب) الاحتفـاظ بالالتزامات المزدوجة

(ج) الصداقـة التقليدية بين بريطانيا والعرب

(د) المخاوف التي لا أسـاس لها

نعـم يـشرف بريطانيـا أكـثر لـو قالـت بصـدق وبسـاطة أن الهجـرة اليهوديـة إلى فلسـطين مقصـود بهـا إيجـاد كتلـة بشريـة (يهوديـة) تجعـل فلسـطين موطنـا لهـا وتدافـع عـن قنـاة السـويس (المطمـوع فيهـا) ضـد مهاجميهـا

والـذي جلـب انتبـاه المحكمـة أكـثر هـو لمـاذا لا يكـون العـرب أنفسـهم هـم حـماة القنـاة وغيرهـا مـن طـرق المواصـلات الإمبراطوريـة التـي تقـع كلهـا تقريبـا في جزيـرة العـرب،

مثل

ويـشرف عليهـا ثمانـون مليـون عـربي؟! ولا نشـك في أن محكمتنـا هـذه تكـون قـد قـصرت بواجبهـا أن لم تبـد رأيهـا بصراحـة تامـة في سياسـة ظاهـرة علنـا. هـذه، ثابـت فيهـا التضليـل والتنصـل والإبهـام مـن قبـل دولـة بريطانيـا العظمـى التـي يجـب عليهـا عندمـا تقـوم بتنفيـذ صـك الانتـداب أن تكـون صريحـة وصادقـة في كل مـا تفعـل. وعنـد عـدم قيامهـا بذلـك لا يمكـن أن ينـال الـرضى بـل هـو

موجـب للتأنيـب! أن العـرب يأخـذون عـلى بريطانيـا العظمـى سـماحها بتدفـق الهجـرة اليهوديـة عـلى بلادهـم، وتطبيـق سياسـة تتنافـر وسـيادتهم في وطنهـم، ولا تتفـق والعهـود التـي قطعتهـا والي حاربـوا الأتـراك إخوانهـم في الديـن في سـبيلها. والمحكمـة تقـر بـأن الوطـن القومـي اليهـودي يسـتحيل

تحقيقـه بـدون إفنـاء العـرب، أو جعلهـم أقليـة.

إن الأدون وايـز مـن وجـد نفسـه في مركـز لا يحسـد عليـه أن يفـسر نصـوص الانتـداب تفسـيرا مشـوها، يظهـر أنـه يمكـن تفسـيرها إذا قـال إن بريطانيـا العظمـى سـارت عـلى سياسـة الغـش والخـداع. ولكنـه قـال بغـير أدب، لـو قيـل العـرب لليهـود، لتعـذر عليهـم فهـم الحقيقـة. ولذلـك كان يجـب أن يقـال لهـم بـأن هجـرة اليهـود إلى بلادهـم تعمرهـا وترقيهـا ويجلـب الرخـاء لهـا! . . . والمحكمـة لا يمكنهـا مطلقـا أن تقبـل أو تسـمع مرافعـة كهـذه ولا يمكنهـا أن تفهـم كيـف أن السـكان العـرب يخدعـون فيـما لـو قيلـت لهـم الحقيقـة.

بنـاء عـلى مـا ذكـر مـن الأسـباب، تـرى هـذه المحكمـة أن تعلـن عـن رأيهـا بصراحـة أنـه يجـب:

(١) وقـف الهجرة اليهودية حالا وقفا تاما

٢) سـن تشريع يحول دون انتقال أراضي العرب إلى اليهود.

٣) تشـكيل حكومة نيابية.

٤)تغريـم المدعـى عليهـما مصاريـف الدعـوى، وإلزامهـما بدفـع جميـع الخسـائر التـي نجمـت عـن الإضراب العـام.

صـدر في لاهـاي بهولنـدا في اليـوم السـادس والثمانـين لـلإضراب العـام في فلسـطين، الموافـق ١٣ تمـوز سـنة ١٩٣٦.

(طبـق الأصـل) التواقيع

قضيَّة الإسكندرونة

في محكمة العدل الدَّولي

«لم تسفر المخابرات الدبلوماسيَّة بين حكومة سوريا من جهة، وحكومتي فرنسا وتركيا من جهة أخرى عن نتيجة حاسمة بشأن لواء الإسكندرونة، فاضطرت حكومة سوريا إلى رفع دعوى على حكومتي فرنسا وتركيا أمام محكمة العدل الدولي (في لاهاي) لاعتدائهما على حقوق سوريا في اللِّواء المذكور، وفيما يلي نصُّ القرار:»

قضية عدل عليا رقم ٦ – ٣٨ في محكمة العدل الدولي، أمام الكولونيل شارل دي فانوفيل (رئيسًا) والدكتور مارتن، وولنغتون كونغ (أعضاء).

المدعي: حكومة سوريا العربية – وكيلها الأستاذ زكي الأرسوزي.

المدَّعى عليهما: حكومة فرنسا بصفتها منتدبة على سوريا – وكيلها المسيو بلوم، وحكومة تركيا – وكيلها باي رشدي آراس.

***

هذه القضية هي الثَّانية من نوعها – فقد نظرت هذه المحكمة قضية مثلها تتعلَّق بحقّ العرب في فلسطين ضدّ الوطن القومي اليهودي فيها، رقم ١ – ٣٦، بتاريخ ١٣ تموز سنة ١٩٣٦ – وهي عبارة عن طلب إصدار أمر إلى المدعى عليهما ليبيِّنا الأسباب التي تمنعهما من الاعتراف بأنَّ لواء الإسكندرونة جزء لا يتجزأ من سوريا.

القرار

كانت هذه المحكمة قد أصدرت بتاريخ ٢٨ – ٥ – ٣٨ قرارًا تمهيديًّا موجّهًا إلى كلّ من المسيو بلوم وباي رشدي آراس بوجوب حضورهما

أمـام هـذه المحكمـة (إذا أرادا) ليبيِّنـا الأسـباب التـي تمنعهـما مـن:

١) وقـف أعمال الإرهاب ضد العرب في اللِّواء.

٢) وقـف أعـمال الضغـط واسـتعمال النُّفـوذ الشَّـخصيّ في عمليَّـة الاسـتفتاء في اللِّـواء.

(٣) سـحب القـوات التركيـة الموجـودة حـالاً في اللـواء وفي الجلسـة الأولى لسـماع هـذه الفضيـة أبـرز وكيـل المدعـي مسـتنداً رسـمياً مؤرخـاً في ٢٤ تمـوز سـنة ١٩٢٣ وهـو المـادة ٢٧ مـن معاهـدة لـوزان، وهـذا نصهـا:

«ليـس للحكومـة التركيـة ولا للسـلطات التركيـة، أن تمـارس سـلطة أو صلاحيـة في شـؤون سياسـية أو اشـتراعية أو إداريـة في خـارج القطـر الـتركي، لاي سـبب يكـون، عـلى رعايـا قطـر مجهـول تحـت سـيادة الـدول الموقعـة عـلى هـذه المعاهـدة. أو تحـت حمايتهـا، أو عـلى رعايـا قطـر مسـلوخ عـن تركيـا».

وأبـرز أيضـاً مسـتنداً رسـمياً آخـر، هـو المـادة الرابعـة صـك الانتـداب السـوري اللبنـاني، كـما أجـازه مجلـس عصبـة الأمـم، في ٢٤ تمـوز سـنة ١٩٢٢ وهـذا نصـه:

«المنتـدب مسـؤول عـن التحـوط دور التحـوط دون التنـازل. أرض قطريـة سـورية أو تأجيرهـا أو جعلهـا بأيـة صـورة مـن الصـور. تحـت سـلطة حكومـة أيـة دولـة أجنبيـة»

وقيـل لنـا مـن قبـل المدعـي، واعـترف بذلـك وكيـلا المدعـى عليهـما، بـأن كلا مـن معاهـدة لـوزان وصـك الانتـداب وثيقتـان رسـميتان لا يمكـن الطعـن في صحتهـما.

وفي الجلسة حضر أمامنا وكيلا المدعى عليهما. فادى الأول باي رشدي آراس بأن أكثرية سكان سنجق الإسكندرونة أتراك، وطلب ضمه الى تركيا. وادعى الثاني (المسيو بلوم) بأن الحالة السياسية في أوروبا اضطرت فرنسا لقبول مطالب تركيا في السنجق. وأضاف الى ذلك قوله «انه لا يرى مانعاً من اتفاق إنكلترا وفرنسا وتركيا (الأمة القوية في الشرق) على مصير سنجق الإسكندرونة فانه إذا جاء اليوم الذي تصبح فيه مصر وقناة السويس مهددتين، نرى الجيش التركي يزحف إليهما لحمايتهما» وقد اتضح للمحكمة من البينات التي قدمها وكيل المدعي أن الأعمال الجارية في لواء الإسكندرونة تربي كلها الى تتريك اللواء تمهيداً لضمه الى تركيا

ولا يمكن للمحكة أن تقتنع بأن الادعاءات التي قدمها وكيلا المدعى عليهما تبرر قيامهما بأعمال في اللواء هي في نظر المحكمة مخالفة للعرف الدولي، واعتداء على الحق والقانون. أن المحكمة قد فهمت من الحجج التي لديها بأن لواء الإسكندرونة كان ولا يزال جزءاً من سوريا من الوجهات التالية:

- ١ -

فمن الوجهة الجغرافية تعد هذه المنطقة سورية بحتة.

وقد أجمع علماء الجغرافية العرب كاليعقوبي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي وياقوت على أن جبال طوروس تؤلف فعلاً الحدود الشمالية السورية. وهذه الحدود تشمل أطنه ومرعش. وقال المؤرخ سترابون «إن سورية تمتده جبال طوروس الى قناة السويس ومن الفرات الى البحر المتوسط» وقال البروفسور هو غارت الأستاذ في جامعة أكسفورد

«إن سورية يحدها البحر وصحراء العراق وجبال طوروس وصحراء سيناء» وقال العلامة فيتال غيتيه «إن الطرف الشمالي من ولاية حلب القاسم بين الدرجتين ٣٦ و٣٧ من درجات الطول اللتين تبلغان جبال طوروس، كانت الفرمانات السلطانية تسميه «عربستان» أو بلاد العرب.

- ٢ -

ومن الوجهة العنصرية يعد سكان لواء الإسكندرونة سوريين من أقدم العصور. فقد قال الأستاذ كوك في كتابه مجمل التاريخ «إن العنصر السامي الذي يشمل الأرمن والبابليين والاشوريين والعرب والفينيقيين والعبرانيين والمؤابيين يسكن المنطقة التي تحدها جبال طوروس وارمينيا وإيران وخليج فارس والمحيط الهندي والبحر الاحمر والبحر الابيض المتوسط. ولم يذكر التاريخ أن سورية الشمالية احتلها غير الساميين قبل الفتح التركي.

-٣-

ومن الوجهة التاريخية فإن مدينتي الاسكندرونة وأنطاكية كان مصيرهما دائما معلقاً بمصير سورية. فالسلوقيون كانوا يسمون انطاكية «أنطاكية سورية» وكان ممر «إيسوس» وهو ممر «بيلان» الحالي يسمى «باب سورية» ولما سقطت سورية في أيدي الرومان سنة ٦٤ ق. م جعلت انطاكية عاصمة لها.

-٤-

ومن الوجهة الدينية فأنطاكية كانت عاصمة النصرانية الاولى كما كانت مقر جميع البطاركة الشرقيين الذين لا يزالون يلقبون أنفسهم ببطاركة

أنطاكية ويقيم بعضهم في سورية ولبنان الى الآن. ثم إن مؤسس الطائفة المارونية في لبنان هو من منطقة انطاكية وقبره فيها. وبطريركية الروم الارثوذكس في سوريا لا تزال حتى الآن تمنح سكان انطاكية العلمانيين حق الاشتراك في انتخاب البطريرك في دمشق

-٥-

ومن الوجهة الحقوقية فاتفاقية أنقرة المعقودة بين فرنسا وتركيا تنص المادة الثامنة على ما يأتي:

«يعين ويوضح الخط المذكور في المادة الثالثة كما يأتي: «يبدأ خط الحدود نقطة على خليج الاسكندرونة ويتجه الى ميدان اكبس تاركاً محطة الخط الحديدي والمركز تابعين لسورية»

ومعاهدة لوزان تنص على أن حدود تركيا مع سورية الحدود المقررة في المادة الثانية من الاتفاق الفرنسي التركي المؤرخ في ٢٠ اكتوبر سنة ١٩٢١ وكذلك جميع المعاهدات والاتفاقات التي عقدت بين فرنسا وتركيا منذ سنة ١٩٢٠ يحتوي على اعتراف رسمي من تركيا بأن لواء الاسكندرونة جزء من سورية.

ونعتقد بأن محكمتنا هذه تكون قد قصرت بواجبها إذا لم تبد رأيها بصراحة تامة، في سياسة ظاهرة علنا مثل هذه، ثابت فيها التضليل والتنصل من جهة، وسوء استعمال الأمنية من جهة أخرى، الذي تنص عليه المادة ٣١٢ من قانون العقوبات!

إن العرب يأخذون على فرنسا سماحها (وهي المنتدبة عليهم) باقتطاع

جـزء مـن بلادهـم والتنـازل عنـه لتركيـا وهـذا عمـل لا يتفـق ونصـوص صـك الانتـداب. وقيـام فرنسـا بهـذا العمـل لا يمكـن أن ينـال رضـا العـرب، بـل هـو موجـب للتأنيـب. عـدا عـن أن الاسـتفتاء الـذي قامـت بـه اللجنـة الدوليـة في لـواء الاسـكندرونة، بالنيابـة عـن عصبـة الامـم، جـاء في صالـح العـرب، بالرغـم مـما اسـتعمل مـن وسـائل الضغـط والتهديـد التـي كانـت سـببا في اسـتقالة رئيـس اللجنـة أن بـاي رشـدي آراس لم يكـن موفقـاً في دفاعـه حينـما اعـترف أولا بصحـة المسـتندات التـي أبرزهـا السـيد زكي الارسـوزي، ثـم لجـأ الى التهديـد بقولـه: «إذا كانـت فرنسـا لا تريـد الاعـتراف بحقـوق تركيـا في السـنجق، فـان عـلى تركيـا أن تفكـر في طـرق الدفـاع عـن تلـك الحقـوق بالقـوة» كـما أن المسـيو بلـوم وجـد نفسـه في مركـز لا يحسـد عليـه، أن يفـسر قيـام فرنسـا بأعـمال كهـذه «لكـون العـرب أثبتـوا عجـزا سياسـيا في أنفسـهم». ثـم قـال: «ولمـا كانـت فرنسـا لا يمكـن أن تنفـض يدهـا مـن البحـر الأبيـض المتوسـط؛ لذلـك يجـب أن تعلـق أهميـة كـبرى عـلى صداقـة الأتـراك»

وهـذه المحكمـة تـرى أن لـو كان العـرب أقويـاء لمـا كانـت الحاجـة تسـتدعي جعلهـم تحـت الانتـداب، ولكنهـم كانـوا ضعفـاء يـوم انفصالهـم. عـن الإمبراطوريـة العثمانيـة، وهـذا مـا دعـا إلى أن تكـون دولـة فرنسـا منتدبـة عليهـم. ولـو سـارت فرنسـا بموجـب المـادة ٢٢ مـن عهـد عصبـة الأمـم التـي بنـي عليهـا صـك الانتـداب، لوجـدت في سـوريا خـلال العشريـن الماضيـة حكومـة قويـة منظمـة لا تقـل قـوة وتنظيمهـا عـن حكومـة تركيـا. ولـكان باسـتطاعتها أن تعتمـد عليهـا (لا عـلى تركيـا) في مثـل هـذه الظـروف

الحرجـة!

ومـن المؤسـف حقـاً، أن تكـون حقـوق الشـعوب موضـع مسـاومة عنـد حكومـة تحمـل لـواء الديمقراطيـة في العـالم!

بنـاء عـلى مـا ذكـر مـن الأسـباب، تـرى هـذه المحكمـة أن تعلـن عـن رأيهـا بالإجـماع أنـه يجـب:

١) سـحب القوات التركية من لواء الإسكندرونة

٢) الاعتراف بأن هذا اللواء جزء لا يتجزأ من سـوريا

٣) إلزام المدعى عليهما بالرسـوم والمصاريف القانونية

صـدر في لاهـاي (هولنـدا) في اليـوم الخامـس والعشريـن مـن شـهر حزيـران سـنة ١٩٣٨.

(طبـق الأصـل) التواقيع

المرأة في الميدان

أيُّها التَّاريخ، قل لسـليمان «وجدتها»

«امْـرَأَةٌ فَاضِلَـةٌ مَـنْ يَجِدُهَـا؟ لأَنَّ ثَمَنَهَـا يَفُـوقُ اللآلِـئَ. تُنَطِّـقُ حَقَوَيْهَـا بِالْقُـوَّةِ وَتُشَـدِّدُ ذِرَاعَيْهَـا. تَبْسُـطُ كَفَّيْهَـا لِلْفَقِـيرِ، وَتَمُـدُّ يَدَيْهَـا إِلَى الْمِسْـكِينِ»

-١-

سليمان ...

الملـك العظيم، وصاحب العرش الذَّهبيّ!

سـليمان، الذي اختبر ألف امرأة مختارة من نسـاء مملكته!

هذا الحكيم ...

عزَّ عليه العثور على واحدة منهنّ فاضلة، فسـأل أي هي؟

بحـث عنها فلم يجدها!

هالَه الأمرُ، فحزنَ واكتأب!

تناولَ سفر «الجامعة»

وبقلـم الحكمة خطَّ فيه هذا القول:

امـرأة فاضلة من يجدها؟!

-٢-

دارَ الزَّمن دورته،

وإذ بالمرأة العربيَّة في فِلَسـطين، تثور!

أشربت روحها ببغض الظُّلم، ومقت الاستبداد!

رأت شعبها يُضطهد،

ووطنها، تحوطه المصائب من كلِّ جهة!

تذكّرت أخواتها في صدر الإسلام!

أحسَّت بحافز يحفِّزها إلى التَّشبُّه بهن!

ناصرتِ الرَّجل في جهاده!

شاركته في آلامه وأحزانه!

ثمَّ صاحت بصوت الظَّافر المنتصر:

ألا يا أيُّها التَّاريخ قل لسليمان:

وجدتها!

-٣-

اتَّسع ميدان الجهاد، فكثرت ضحاياه!

كانت كلّها ضحايا الرَّجل وحدَه!

رأت المرأةُ ذلك فتألَّمت ...

شقَّ عليها ألَّا تشارك الرّجل في تضحيته، والتَّضحية في سبيل الوطن فرضٌ على الجميع

تركت خدرها، واندفعت إلى الميدان، ميدان الشَّرف والواجب!

رافقت الرّجل في تظاهره ضدّ الظُّلم،

وفي سبيل الحريَّة، لحقت به إلى أعالي الجبال!

ثـمَّ صاحت بصوت الظَّافر المنتصر:

ألا يا أيُّها التَّاريخ قل لسـليمان:

وجدتها!

-٤-

قُتِلَ الزَّوج، فترمَّلت المرأة،

قـضى الآباء، فتركوا خلفهم يتامى!

لم يبقَ لدى المرأة في الدّنيا سـوى حليها، وحليّ المرأة زينتها!

هو عزيز لديها!

ولكـن مـاذا تنفع المرأة زينتهـا، والوطن قد جُرِّد من كلّ أنواع الزّينة؟

فخلعـت حليها وقالت: بيعوه ...

أنفقـوا ثمنه على المنكوبين!

ثـمَّ صاحت بصوت الظَّافر المنتصر:

ألا يا أيُّها التَّاريخ قل لسـليمان:

وجدتها!

-٥-

نفت السُّـلطة قادة الأمَّة،

ورجالات البلاد اعتقلت!

كمت الأفواه، فسـكتت الألسن

اشـتدَّ الضّغط على الصُّدور، فمنع القلوب من الخفقان!

لم يعـد في ميدان الجهاد صوتٌ يرتفع!

هنا تململت المرأة!

دعاهـا داعي الوطن بوجوب تملئة الفراغ!

تناولـت بيمينهـا راية الثَّورة قبل أن تطوى،

ثـمَّ صاحت بصوت الظَّافر المنتصر:

ألا يا أيُّها التَّاريخ قل لسـليمان:

وجدتها!

بين الحقيقة والخيال

مقدّمة

في هـذا الجـوّ المكفهـرّ، المتلبّـد بالغيـوم، الـذي يضغـط عـلى صـدر كلّ نفـس في فلسـطين. يتسـاءل النَّـاس عـمَّا حـدا ببريطانيـا العظمـى إلى الوقـوف موقـف الشِّـدَّة مـع العـرب، وهـي الدَّولـة المأثـور عنهـا العدالـة في الحكـم، ورحابـة الصّـدر في معاملـة رعاياهـا ... وعـمَّا دفـع بالعـرب إلى مقاومـة السِّياسـة القائمـة في البـلاد، وهـم المشـهورون بصداقتهـم التَّقليديَّـة للإنجليـز، وشـدَّة محافظتهـم عـلى علاقاتهـم الوديّـة معهـم.

سؤالان خطيران

سـؤالان خطـيران جـدًّا، يتعلَّقـان بصميـم الموقـف الحـاضر في فلسـطين. والجـواب عليهـما يلقـي نـورًا سـاطعًا عـلى أسـباب التَّقاطـع والجفـاء بـين العـرب والإنجليـز، في قضيَّـة هـي الأولى مـن نوعهـا في قضايـا التَّاريـخ.

إنَّنـا إذا بحثنـا الأسـباب القريبـة مـن هـذا الجفـاء وجدناهـا - في الظَّاهـر - إخـلالًا بالأمـن مـن جهـة، ومحافظـة عـلى النِّظـام مـن جهـة أخـرى. وإذا تعمَّقنـا في البحـث وجدنـا أنَّ هنالـك أسـبابًا خفيَّـة، لهـا اتِّصـال وثيـق بعوامـل نفسـيَّة قاهـرة عملـت الأيَّـام عـلى تضخيمهـا حتَّـى انفجـرت وأسـفرت عـن هـذا الصِّـدام القائـم بـين العـرب والإنجليـز في هـذه البـلاد. وهـو في الواقـع صـدام بـين الحقيقـة المجـرّدة والخيـال المجسّـم.

اليهود والإنجليز

العـرب يقولـون إنَّ فِلَسـطين بـلاد عربيَّـة وإنَّهـم أصحابهـا، وهـذه هـي الحقيقـة المجـرّدة، واليهـود يقولـون إنَّ فِلَسـطين لهـم، وهـم يعـودون إليهـا

بحـقّ، وهـذا هـو الخيـال المجسّـم. واليهـود – كـما هـو معلـوم – شـعب مضطهـد، يحيـا حيـاة شـقاء في كلّ أنحـاء الدّنيـا.؛ ولذلـك فقـد تخيَّـل السَّـعادة في عودتـه إلى فلسـطين لإحيـاء مجـده. وكثـيرًا مـا يلجـأ الإنسـان إلى الخيـال إذا كان الواقـع مـن السُّـوء والقبـح بحيـث لا يسـتطيع مواجهتـه، وإدمـان التَّفكـير فيـه!

وتخيَّلـت بريطانيـا العظمـى بدورهـا مـا في إنشـاء مملكـة يهوديّـة في فلسـطين مـن القيمـة في تحقيـق أغراضهـا الاسـتعمارية في جزيـرة العـرب، فعملـت واليهـود عـلى تحقيـق هـذا الخيـال بقـوّة المـال وعسـف القـوّة. وتجسّـم هـذا الخيـال بمـرور الزّمـن، حتَّـى أصبـح لـدى الإنجليـز واليهـود حقيقـة قريبـة المنـال!

موقف العرب

هـذا مـن الجهـة الواحـدة. أمَّـا مـن الجهـة الأخـرى، فقـد أهمـل العـرب (في بـادئ الأمـر) التَّفكـير الجـديّ بالموضـوع لعلمهـم أنَّ سـعي اليهـود في امتـلاك فلسـطين محاولـة فاشـلة لا تسـتدعي كبـير اهتـمام، وكانـوا ينظـرون إلى الإنجليـز نظـرة الشـكّ في أن يكـون لهـم ضلـع في تـكل المحاولـة، وكثـيرًا مـا كانـوا يقولـون: «هـل يُعقـل أنّ الإنجليـز يسـلمون مهـد المسـيحيَّة لليهـود ومليكهـم يحمـل لقـب حامـي الإيمـان؟»

اصطدام الخيال بالحقيقة

غـير أنَّ الأمـور كانـت تجـري بخـلاف مـا كان يظنّـه العـرب، واتِّفـاق مصلحـة الإنجليـز مـع اليهـود جعـل الأخيريـن يندفعـون في تحقيـق خيالهـم اندفاعًـا شـديدًا أفقدهـم الوعـي، وتكشَّـفت الأيَّـام للعـرب عـن مؤامـرة واسـعة النِّطـاق لتحقيـق حلـم المملكـة اليهوديَّـة. فنبّهـت فيهـم شـعور الحـذر،

ورأوا في المملكة اليهوديَّة خطرًا يهدِّد كيانهم. فهبّوا لمقاومته، وكانت النَّتيجة أنِ اصطدم الخيال بالحقيقة، ذلك الاصطدام العنيف!

الخاتمة

هذا هو التَّحليل النَّفسيّ للموقف الحاضر. وازدياد خطورته يومًا بعد يوم ناجم عن شعورين عظيمين متضادين:

١) شعور العرب بخطر أوشكوا أن ينسوه!

٢) شعور اليهود والإنجليز بانهيار أمل أوشكوا أن يلمسوه!

والفريقان – في موقفهما الحاضر – كمن في يقظة نوميَّة، يدريان ولا يدريان ماذا يفعلان، ولا بدَّ لهذه اليقظة النوميَّة أن تنتهي بصحوة، يكون فيها الفصل بين الحقّ والباطل!

ضبط النَّفس!

«في ٢٩ أيّار سنة ١٩٣٦ (إبّان الثَّورة) ألقى السير أرثر واكهوب، المندوب السَّامي في فِلَسطين، خطبة في افتتاح المعرض الصّهيوني في تل أبيب، عرض فيها بالعرب، وأطرى اليهود بفضيلة «ضبط النّفس» التي أبدوها أمام «اعتداءات» العرب ... فتناولت الصّحف الإنجليزية هذه الفضيلة وأطنبت بها. واستغلّها فرسان الصّهيونيَّة في صالح اليهود، في معرض دفاعهم عن العرب!»

الفضيلة خلاف الرَّذيلة والنَّقيصة. وهي لا يصحّ أن تسمَّى فضيلة بالمعنى الكامل إلَّا إذا تحلَّى بها شخص باستطاعته أن يفعل ضدّها؛ كمن يعفو عن مذنب، وهو قادر على الاقتصاص منه!

فالعفَّة مثلًا، لا تُحسَب فضيلة للمنقطع في صومعته بعيدًا عن النَّاس، وعن تجارب الحياة. ولكنَّها تحسب فضيلة، ودرجة رفيعة في الفضل، لمن تحيط به المغريات بأنواعها ويظلّ متمسّكًا بأهداب العفَّة.

وفضيلة «ضبط النَّفس»، من جملة الفضائل الإنسانيَّة.

فهل كان اليهود، يوم سربلهم المندوب السَّامي بهذه الفضيلة من القوَّة والمقدرة والحقّ، بحيث يحسب لهم «ضبط النَّفس» فضيلة؟

إنَّ اليهود أقلِّيَّة في فِلَسطين، ووجودهم فيها حاصل بالرّغم من إرادة أصحابها، عدا عن أنَّ لهم غاية يسعون إليها، وهي تهويد البلاد والسَّيطرة على سكَّانها العرب.

فهل إذا قاوم العرب تلك الغاية التي تهدِّد كيانهم كأمَّة، ولم يقابل اليهود هذه المقاومة بالمثل، يحسب لهم ذلك فضيلة؟

أليست الثَّورة القائمة في البلاد هي وليدة الوطن القوميّ اليهوديّ؟

أليس وجود اليهود أنفسهم في البلاد هو سبب سفك الدّماء فيها؟

فإذا اكتووا بنار الاضطهاد فهم المسؤولون. وعليهم وعلى أولادهم كلّ دم سفك في فِلَسطين منذ وُجِدَت فكرة الوطن القوميّ اليهوديّ فيها إلى الآن!

ولو كان للحقّ والمنطق قيمة في عرف السِّياسة، لكان العرب – وهم الأقوياء بحقّهم – أحقّ بفضيلة «ضبط النَّفس» من اليهود. تلك الفضيلة التي تمسَّكوا بها مدَّة ثمانية عشر عامًا، ذاقوا خلالها كلّ أنواع الضَّغط والاستفزاز!

وربَّ قائل يقول:

«هل اعتدى اليهود على العرب اعتداءات دمويَّة حتَّى يُحسَب لهم سكوتهم عنها فضيلة؟»

ولكن، ليس كلّ اعتداء يكون بالقتل وسفك الدِّماء، بل هناك اعتداءات هي في الواقع أشدّ من القتل وأعظم، واليهود أنفسهم يقرّون بأنَّ الاضطهاد الذي ألمَّ بهم في ألمانيا هو أعظم وأشدّ اضطهاد عرفوه في تاريخهم كلّه، مع أنَّه لم تُسفَك من دمائهم نقطة واحدة!

أليس أشدّ من القتل، أن يدَّعي غريب بوطن أنت قائم عليه ثلاثة عشر قرنًا؟

أليس أشدّ من القتل، أن يغصّ وطنك بعشرات الألوف – رغمًا عنك – من نوع هذا الغريب؟

أليس أشدّ من القتل، أن تُسَاس - في سبيل الوطن القوميّ اليهوديّ - بسياط قوانين صارمة، لم يسبق لها مثيل في التَّشريع الإنساني؟

أليس أشدّ من القتل، أن تلقى مقدّراتك السِّياسيَّة والاقتصاديَّة والاجتماعيَّة تحت رحمة من لا يبغي لك إلَّا الجلاء؟

أليس من غرائب السِّياسة أن يعدّ المعتدى مدافعًا يُمتَدَح بفضيلة «ضبط النّفس» وأن يعدَّ المعتدى عليه مهاجمًا، يُنعَت بالجاني الأثيم؟

إنَّ شعبًا تحلّ به هذه المصائب كلّها، ويظلّ ضابطًا نفسه، لهو بحقّ أعجوبة الدَّهر، والمثل الذي يستهجن أن يُحتَذَى في هذا العصر!

سياسة التَّقسيم

متى بدأت وكيف تطوَّرت

«الأمم من صنع الله، أمَّا السِّياسة فمن صنع البشر. وكيان البشر مشكوك فيه جدًّا، أمَّا كيان الأمم فباقٍ إلى الأبد!»

-هتلر-

مقدمة

انتهت الحرب العالميَّة الكبرى سنة ١٩١٩ باقتسام الدُّول الظَّافرة خريطة العالم فيما بينها، بموجب معاهدة سمّوها (معاهدة فرسايل) فكان عرب سوريا - ومن ضمنها فلسطين - أحد الشُّعوب التي اتَّصلت بتلك المعاهدة المشؤومة واكتوت بنارها. وكان نصيبهم منها أن اقتسمت دولتا فرنسا وإنجلترا سوريا، الجزء الشَّماليّ منها للأولى والجنوبيّ (فلسطين) للثَّانية.

تقسيم سوريا

ولم يقف تقسيم سوريا عند هذا الحد، بل تعدَّاه إلى تجزئة أخرى أشدّ وأنكى. إذ جعلت فرنسا من قسمها الشَّماليّ خمسة أجزاء أسمتها دويلات:

١) دولة لبنان الكبير.

٢) دولة دمشق.

٣) دولة جبل الدّروز.

٤) دولة العلويين.

٥) دولة حلب.

وجعلت إنجلترا من قسمها الجنوبيّ جزأين، هما:

١) إمارة شرق الأردن.

٢) حكومة فِلَسطين.

وبهذه التَّجزئة البغيضة أصبحت سوريا – لأغراض استعماريَّة محضة – قطعًا صغيرة، منفصل بعضها عن بعض. بعد أن كوّنتها الطَّبيعة قطعة واحدة، يرتبط سكّانها كلّهم بوحدة القوميَّة واللُّغة والعادات والتَّقاليد والأماني السِّياسيَّة.

تطوُّر التّقسيم

غير أنَّ سياسة التَّقسيم هذه قد منيت بالفشل في سوريّا الشَّماليَّة بعد تجربة مرَّة دامت ١٨ عامًا، وأصبحت اليوم، بفضل ثبات العرب فيها، متَّحدة الأجزاء، خلا الجزء الشَّماليّ الغربيّ منها، وهو لبنان الكبير.

وسياسة التَّقسيم هذه ظهرت بوادرها – كما قدّمنا – عقب انتهاء الحرب الكبرى، حيث ذكرت صحف ذلك الحين أنَّ هنالك سياسة استعماريَّة معيّنة، حاكت خيوطها لندن وباريس، وترمي إلى خلق ثلاث دولة مستقلَّة:

الأولى بأكثريَّة إسلاميَّة في سوريا!

والثَّانية بأكثريَّة مسيحيَّة في لبنان!

والثَّالثة بأكثريَّة يهوديَّة في فِلَسطين!

وبهذه الطَّريقة الجهنّميَّة يُقضى على كلّ وحدة البلاد السِّياسيَّة والاجتماعيَّة والاقتصاديَّة.

وقد ظلَّت هذه الفكرة يحوطها الإبهام والغموض[1]؛ حتَّى ظهرت بأجلى مظاهرها في المدَّة الأخيرة بفصل لبنان عن سوريا، وتنازل فرنسا عن لواء الإسكندرونة للأتراك، وجنوح بريطانيا العظمى إلى تقسيم فلسطين إلى قسمين؛ بعد استحالة إيجاد أكثريَّة يهوديَّة فيها. يكون القسم السَّاحليّ منها نصيب اليهود لإنشاء مملكتهم فيها!

نهب مقسَّم

وكأنَّ الدُّول المستعمرة قد هالها ما أحسَّت به من يقظة العرب، وتنبهّهم لضمان مستقبلهم، فتناولت المبضع وشرعت تقطّع به أوصال سوريا جغرافيًّا؛ بعد أن قطعت أوصالها بسياسة الإقليميَّة؛ لتكون نهبًا مقسمًا بين أغراض الاستعمار الإنجليزي - الفرنسيّ - التّركي - الصّهيونيّ، بعد أن أباحوا هجرة العناصر الغريبة إليها ... كالأرمن والتّرك والأكراد والأشوريين واليهود وغيرهم. كلّ ذلك لهدم كيانها وتمزيق وحدتها. وسوريا هي التي خلقها الله - في كلّ أدوار التَّاريخ - وحدة كاملة غير مجزَّأة، وأحاطها بسياج طبيعيّ هو جبال طوروس شمالًا، وصحراء سيناء جنوبًا، وبادية الشَّام شرقًا، والبحر الأبيض المتوسِّط غربًا.

مرامي السِّياسة

وما نظنُّ العرب يجهلون مرامي هذه السِّياسة في تمزيق وحدة بلادهم وإقصائهم عن ساحل البحر الأبيض المتوسِّط في ذلك الفضاء الممتدّ من ساحل الأناضول حتَّى الشَّواطئ المصريَّة، ولكنّ الذي نجهله ألَّا يكون

---

١ اتَّبعت بريطانيا العظمى سياسة التَّقسيم هذه سرًّا في العراق، يوم أن قام الأشوريون بثورتهم سنة ١٩٣٣، ولولا إحماد الجيش العراقيّ الباسل هذه الثَّورة لأدَّت إلى احتمال مطالبة الأشوريِّين بوطن أشوري في قلب العراق، وقس على ذلك محاولة تطبيق هذه السِّياسة في الهند وفي إيرلندا الحرَّة.

هنالك اتِّجاه جديد في تغيير الأساليب السِّياسيَّة التي سار عليها العرب حتَّى اليوم، والتي أدَّت بهم إلى مثل هذه النَّتائج المُرَّة!

سوريا تتمخَّض

وفي اعتقادي إنَّ سوريا العربيَّة تتمخَّض اليوم عن أحداث خطيرة، وهي بانتظار الزَّعيم القويّ، أو الدكتاتور الجبَّار، الذي يملي إرادته إملاء بتوجيه دفّة السِّياسة نحو هدف الوحدة، والوصول بسوريا – السَّفينة المضطربة – إلى شاطئ السَّلامة.

إنَّ الفرصة سانحة الآن

فأين الدّكتاتور؟!

سياسة الأمر الواقع

موقف العرب من هذه السِّياسة

سفينة مضطربة

سوريا بحدودها الطَّبيعيَّة، تشبه في حالتها الحاضرة سفينة مضطربة تتقاذفها أمواج السِّياسة في بحر خضمّ من المطامع التي لا نهاية لها. ومن المؤكَّد إذا لم يقيِّض الله لها ربّانًا ماهرًا أن تتحطَّم على صخرة تلك المطامع؛ منتظرةً هدوء العاصفة!

اعتاد بحَّارة السَّفينة أثناء العاصفة الهوجاء، أن يلقوا في البحر شيئًا من محمولها بين حين وآخر؛ بغية إنقاذ السَّفينة، والحيلولة دون ضياع محمولها كلّه.

إنقاذ ما يمكن إنقاذه

ونخشى أن تكون هذه الفلسفة قد وجدت بين رجالاتنا من يسير عليها، جريًا على سياسة «إنقاذ ما يمكن إنقاذه»، ولكنّ هذه الفلسفة التي، إن جاز تطبيقها على المتاع، فتطبيقها على الأوطان لا يجوز، وبخاصَّة من كانت حاله مثل حالنا؛ لأنَّ خسارة المتاع تعوَّض، أمَّا خسارة الوطن فلا عوض لها، ومتى انهار جزء من الوطن، تداعت بقيَّة أجزائه!

بوادر الخطر

لقد ظهرت بوادر هذا الخطر بصورة ملموسة، لا مجال للشكّ فيها. وذلك في محاولة الطَّمَّاعين اقتطاع أطراف هذا الوطن العربيّ، في الشَّمال وفي الجنوب، ووضع بقيته على مائدة التَّشريح، يفعل فيه مبضع الجرَّاح ما يشاء!

ولسنا ندري إذا كان هذا الجسم يستطيع الحركة بعد هذه العملية الجراحيَّة الخطيرة، أو يقوى على الوقوف على رجليه حين دنوّ السَّاعة الرهيبة!

فوق فوَّهة بركان

إنَّ العالم بأجمعه، مستقرّ اليوم، فوق فوَّهة بركان مضطرب، يتحاشى الحركة مخافةَ أن يثور وينفجر، فلا يبقي ولا يذر!

ولأوَّل مرَّة في التَّاريخ، يلجأ السَّاسة إلى التَّسليم بالأمر الواقع، بينما كانت ضربة مروحة - في الماضي - تكفي لإشعال نار حرب ضروس، وبالرّغم ممَّا يحصل كلّ يوم من أسباب استفزازية خطيرة، فإنَّ الدُّول الكبرى ذات الشَّأن، تتذرَّع بفضيلة «ضبط النَّفس» على مضض، وتسلِّم بالأمر الواقع خوفًا من وقوع حرب!

سياسة الأمر الواقع

من هذه الدُّول ما لا تنظر بعين الرِّضا إلى احتلال إيطاليا الحبشةَ، ولكنَّ خوفها من الحرب، جعلها تسلِّم بالأمر الواقع!

ومن الدُّول ما لا تنظر بعين الرِّضا إلى تهديد اليابان لمصالحها في الصِّين، ولكنَّها خوفًا من الحرب، جعلها تسلّم بالأمر الواقع!

ومـن الـدُّول مـا لا تنظـر بعـين الرِّضـا إلى ضـمّ النّمسـا لألمانيـا؛ ولكـنَّ الخـوف مـن الحـرب جعلهـا تسـلِّم بالأمـر الواقـع!

وبالرّغـم مـن تعـدُّد أسـباب الاسـتفزاز في الحـرب الأهليَّـة في إسـبانيا، فـإنَّ تلـك الـدُّول قـد تغاضـت عنهـا، واكتفـت بالاحتجـاج، وهـذا تسـليم منهـا بالأمـر الواقـع!

ماذا يجب أن نصنع؟

وطالمـا أنَّ (الأمـر الواقـع) هـو المحـور الـذي ترتكـز عليـه السِّياسـة الدَّوليَّـة في الوقـت الحـاضر، فلـم لا يسترشـد العـرب بهـذه السِّياسـة، ولا يتَّخذونهـا محـورًا يرتكـز عليـه تنفيـذ ميثاقهـم القومـيّ؟

لِـمَ لا يغتنـم العرب الفرصـة فيكونون أصحاب (الأمر الواقع) لا ضحيَّته!

لقـد مدَّت مائدة التَّشريح!

وخـدّرت الأعصاب بمفعول البنج!

واستلَّ الجرَّاح مبضعه!

وابتدأت عمليَّة البتر في جسـم سوريا!

فماذا نحن فاعلون؟

المملكة اليهودية

تضارب وآراء الجماعات اليهوديّة فيها

«لا يمكن استمرار استعمار اليهود في فلسطين إلّا إلى حدّ تكون نهايته فاجعة مؤلمة؛ لأنَّ أهل البلاد سيشعرون يومًا بأنَّ مصالحهم مهدَّدة، وكيانهم في خطر، فيثورون على الاستعمار اليهوديّ، ويوقفون الهجرة اليهوديَّة بالقوَّة!»

-هرتسل في كتابه الدَّولة اليهوديَّة-

مقدمة

يخطئ من يقول إنَّ جميع اليهود موافقون على إنشاء «المملكة» اليهوديَّة، أو أنَّهم موافقون على إنشائها في فِلَسطين. والحقيقة إنَّهم مختلفون جدّ الاختلاف في أمر إنشاء هذه المملكة. وهذا الاختلاف في الآراء لا يقتصر على جماعة الإصلاحيِّين الذين يطالبون بفلسطين كلِّها وشرق الأردن معها، ولا على صهيوني أمريكا الذين يقترحون تحويل الهجرة اليهوديَّة لغير فلسطين، بل يشمل جماعات أخرى يهوديَّة نذكر آراءها فيما يلي:

اليهود الصّهيونيُّون

كان الدّكتور ثيودور هرتسل صاحب فكرة إنشاء «دولة يهوديَّة» وقد دعا إلى إنشائها في أيّ مكان ممكن بدون تخصيص. وظهر في ذلك الحين فريق من اليهود أطلقوا على أنفسهم (جماعة محبّي صهيون) أيَّدوا

دعـوة هرتسـل في مؤتمـر عـام عُقِـدَ في مدينـة بـازل بسـويسرا عـام ١٨٩٧، تـمَّ فيـه التَّوفيـق بـين الفكرتـين:

١) فكرة إنشـاء مملكة يهوديَّة.

٢) فكرة إنشـائها في فِلَسطين.

ولكـنَّ هرتسـل نفسـه كان يـرى أنَّ إنشـاء مملكـة يهوديَّـة في فِلَسـطين صعـب التَّحقيـق، رغـم كونـه عظيـم الخطـر، وارتيابـه في مسـتقبل هـذه المملكـة تجـده ظاهـرًا بـكلّ جـلاء في كتابـه «الدَّولـة اليهوديَّـة».

وفي ١٥ ديسـمبر سـنة ١٩٠٤ اقـترح المسـتر جوزيـف تشـمبرلن إنشـاء المملكـة اليهوديَّـة في إقليـم أوغنـدا، وحينـما عـرض هـذا الاقـتراح عـلى المؤتمـر الصّهيـونيّ الثَّالـث وافـق عليـه بالأكثريَّـة، ولكـنَّ الاقـتراح اصطـدم يؤمئـذ بمعارضـة السـير هـري جونسـتون حاكـم أقليـم أوغدنـدا في ذلـك الحيـل.

اليهود العصريّون

وهـؤلاء جماعـة أخـرى، تـرى أنَّ «اليهوديَّـة» مجـرَّد رابطـة دينيَّـة لا عنصريَّـة، وهـي لا تتآلـف مـع روح العـصر، وتعيقهـم عـن التَّكيُّـف والاندمـاج بالشُّـعوب الأخـرى؛ ولذلـك عمـدوا إلى نبـذ كلّ عقيـدة تتعلَّـق بفلسـطين، وقالـوا إنَّ قبلـة اليهـوديّ وطنـه الـذي يعيـش فيـه!

اليهود المحافظون

واليهـود المحافظـون عـلى دينهـم لا تعنيهـم السِّياسـة، ولا يحاولـون حـلّ المشـكلة اليهوديَّـة، ويعتقـدون أنَّ كلّ مـا يجـري هـو مـن عمـل اللـه، ولا يجـوز التَّدخُّـل فيـه. ومتـى حـان الوقـت فـإنَّ اللـه ينشـئ لليهـود مملكـة

مـن تلقـاء نفسـه، وينقذهـم مـن الاضطهـاد، ومـن أشـهر هـؤلاء جماعـة «أغـودات إسرائيـل».

اليهود المشكِّكون

وقـد أدرك بعـض اليهـود في فِلَسـطين أنَّ الصّهيونيَّـة لا تتحقَّـق، وعـزَّ عليهـم مـا تـمّ مـن البنـاء اليهـوديّ، فدعـوا إلى إنشـاء دولـة ثنائيَّـة مـن العـرب واليهـود، وقـد عُرِفَـت هـذه الفئـة بجماعـة «بريـت شـالوم».

وهنـاك حـزب كبـير لا يـرضى بفلسـطين ومـا يـزال يسـعى لإنشـاء دولـة يهوديَّـة في أيّ مـكان آخـر.

الخلاصة

يظهـر مـمَّا تقـدَّم، أنَّ الجماعـات اليهوديَّـة منقسـمة عـلى بعضهـا البعـض مـن جهـة إنشـاء المملكـة اليهوديَّـة، وكـمان إنشـائها، وهـذا الانقسـام في الآراء بـين الجماعـات اليهوديَّـة، لـو وُجِـدَ لـه مثيـل بـين العـرب؛ لاتَّخـذت بريطانيـا العظمـى منـه سـلاحًا قويًّـا ضدّهـم، تقـاوم بـه رغباتهـم، ولكـنّ بريطانيـا كانـت - بتمسُّـكها بفكـرة خلـق المملكـة اليهوديَّـة - أشـدّ صهيونيَّـةً مـن الصّهيونيِّـين أنفسـهم بالرّغـم مـن أنَّهـم أقليَّـة، وبالرّغـم مـن أنَّ أكثريَّـة اليهـود منقسـمة عـلى بعضهـا البعـض في كيفيَّـة خلـق هـذه المملكـة!

هذا الانتداب!

ظاهره فيه الرحمة وباطنه العذاب

تبتدئ المادَّة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم بالفقرة الأولى التَّالية:

«في المستعمرات والأراضي التي لم تعد بعد الحرب تابعة لسيادة الحكومات التي كانت خاضعةً لها سابقًا، والتي يعجز سكَّانها عن القيام بالحكم الذَّاتيّ في بلادهم، وهم تحت الظُّروف الصَّعبة في العالم الحديث، يجب أن يطبَّق المبدأ القائل إنَّ رفاهيَّة هذه الشُّعوب وارتقاءها وديعة مقدَّسة من ودائع المدنيَّة. وأن يتضمّن هذا الميثاق الضّمانات اللَّازمة بهذه الأمانة»

هذا هو الأساس الذي بُنِيَ عليه الانتداب في درجاته المختلفة، وهو لا يختلف في بلد عنه في بلد آخر وفي درجته.

إنَّ سوريا، منذ أن فُرِضَ الانتداب عليها، وشعبها بحكم ذاتيّ لا بأس فيه: برلمان ووزارة ورئيس جمهوريَّة إلخ[1] ...

أمَّا فِلَسطين التي اقتُطِعَت من سوريّا وفُرِضَ عليها انتداب مثل انتدابها، فهي حتَّى الآن، وفي مدَّة ثمانية عشر عامًا كاملة، لا تزال تحكم حكمًا استعماريًّا فظيعًا، لا أثر فيه لحريَّة، ولا معنى فيه لاستقلال. كأنَّها بلاد في الدَّرجة الثَّالثة من الانتداب، أو كمستعمرة من طراز الصُّومال، أو الزّنجبار!

كلَّا ... بل إنَّ الصُّومال والزّنجبار هما أحسن حالًا من فِلَسطين المنتدب عليها انتدابًا من درجة (أ)؛ ذلك لأنَّ شعبَي هذين البلدين، وإن

---

١ أُلغِيَ الانتداب الفرنسي على سوريا يوم ١٠ أيلول سنة ١٩٣٦.

جرَّدتهما بريطانيا من حقِّهما في الحكم، فهي لم تجرِّدهما من حقِّهما في وطنهما. أو الأصحّ، لم تقدم على إجلاء أصحاب البلاد لتحلّ فيها شعبًا آخر غيرهم!

أمَّا عرب فِلَسطين، فقد جرَّدتهم بريطانيا علنًا، وفي ظلّ الانتداب المدعوّ بدرجة (أ) من حقّهم في الحكم، ومن حقّهم في وطنهم أيضًا. وفي غفلة من الدَّهر، وعَدَت اليهود الغرباء، المشرّدين، المضطهدين، المتمرّدين، بأن تكون فِلَسطين لهم، يؤسِّسون فيها وطنهم القوميّ. ثمّ يُدمَج هذا الوعد الفاسد بصكّ الانتداب على فِلَسطين، فيصبح أساسًا له، وعلى هذا الأساس الفاسد تحكم بريطانيا فلسطين حكمًا فريدًا في بابه، لا نظير له في العالم أجمع. ظاهره فيه الرَّحمة، وباطنه العذاب. وتحت ستار هذا الانتداب، الذي يجمع بين النَّقيضين، تقوم بريطانيا بتمثيل أفجع مأساة عرفها التَّاريخ!

ولكي تتمّ هذه المأساة بالطَّريقة التي تسير عليها السِّياسة الأنجلو – صهيونيَّة ذات الوجهين، تحتفظ بريطانيا بقوَّاتها البريَّة والبحريَّة والجويَّة الكثيرة العدد في فِلَسطين، لتضغط على العرب إذا ما تظاهروا، أو انتفضوا، أو ثاروا على الظُّلم النَّازل بهم. ولتخمد أنفاسهم إذا صاحوا من ألم يحزّ حزًّا عميقًا في رقابهم!

إنَّنا لسنا أعداء بريطانيا، ولكنَّنا أعداء سياستها الصّهيونيَّة. مثل هذه السِّياسة لا نستطيع إلَّا مقاومتها؛ لأنَّنا نخشى على وطننا أن يضيع، ونخشى على حبل الصَّداقة التَّقليديَّة بيننا وبينها أن ينقطع.

ليس في استطاعة بريطانيا مهما حاولت من ضغط، ومهما قامت به من إرهاب، أن ترغمنا على الخضوع لسياسة فيها موتنا وهلاكنا، وإجلاؤنا عن هذه الدِّيار!

إنَّ انتدابًا يحمل في طيَّاته سموم الصّهيونيَّة وشرورها لا نرضى به مطلقًا. إنَّه سلسلة شرور متَّصلة الحلقات!

إنَّه بؤرة فساد لأخلاقنا وآدابنا، ومعول هدَّام لقوميَّتنا وسيادتنا!

إنَّنا نرفض الانتداب؛ لأنَّه لم يعمل لخيرنا، بل لإجلائنا عن موطن آبائنا وأجدادنا!

إنَّنا نرفض الانتداب؛ لأنَّه جعل من وطننا وطنًا لحثالات الشُّعوب ومتشرِّدي العالم!

إنَّنا نرفض الانتداب؛ لأنَّه حرمنا لذَّة الرَّاحة والطَّمأنينة!

إنَّنا نرفض الانتداب؛ لأنَّه جعلنا تائهين في أوطاننا!

إنَّنا نرفض الانتداب لأنَّه جعل الأجنبيّ ينعتنا بالكلاب[٢]، وشجَّع الدَّخيل على تسميتنا بوحوش الصَّحراء[٣].

إنَّنا نرفض الانتداب؛ لأنَّه سلبنا حريَّة يتمتَّع بها غيرنا من بني الإنسان!

إنَّنا نرفض الانتداب؛ لأنَّه خرَّب ديارنا، وأثكل أمَّهاتنا، ورمَّل نساءنا، ويتَّم أطفالنا!

---

٢ كلمة خاطب بها قائد قوَّات الحكومة في نابلس سعادة سليمان عبد الرَّزاق بك طوقان رئيس بلديتها، حيث قال: «كلاب بلدكم أطلقوا علينا الرَّصاص».

٣ كلمة وجَّهها الأدون ديزنكوف رئيس بلدية تل أبيب إلى العرب، حيث قال في خطاب له ما معناه: «لقد أردنا السَّلام، ولكن هناك أمَّة وحشيَّة مجرمة يعتدي أفرادها على الآمنين منَّا!».

إنَّنا نرفض الانتداب لأنَّه قائم على أساس فاسد مجرم هو وعد بلفور.
ولا ينتج عن هذا الأساس الفاسد المجرد إلَّا الفساد والإجرام!

إنَّنا نرفض الانتداب!

ولا يقرّ لنا قرار إلَّا بزواله!

صكّ مزيَّف

«من المبادئ الأوَّليَّة في فنّ السِّياسة الحرَّة، أنّ خلف كلّ اضطراب ظلامة!»

لسنا في حاجة إلى القول إنَّ ثورتنا على الانتداب حركة استقلاليَّة محضة، شبيهة بحركتي العراق وسوريا؛ لأنَّ هذه الأقطار الثَّلاثة، سكَّانها عرب كلّهم، يدينون بفكرة واحدة، ويؤمنون بعقيدة واحدة، هي الاستقلال، ولا يتحقَّق استفلالنا - نحن عربَ فِلَسطين - إلَّا بهدم صكّ الانتداب من أساسه؛ لأنَّ هذا الانتداب لم يجلب لنا إلَّا كلّ بلاء وشقاء!

وما الدِّماء التي أُرِيقَت في الماضي، وتُراق اليوم على أديم هذا الوطن، إلَّا مسبّبة عن هذا الانتداب الفاشل، القائم على سياسة السَّيف والمدفع، لا على سياسة تقرير المصير!

لقد خدعتنا السِّياسة البريطانيَّة وعبثت بنا، طول سنيّ هذا الانتداب الظَّالم الذي فُرِضَ علينا فرضًا، وحكم علينا بالتَّشريد والفناء!

انتداب أملته قوّة الاستعمار، وهيَّأه غدر الصّهيونيَّة، ودون أن يسمح للعرب بالدِّفاع عن أنفسهم أمام عصبة الأمم، أو عصابة هضم حقوق النَّاس!

إنَّ صكّ الانتداب هذا، من الوجهة القانونيَّة، عديم الفائدة لأنَّه ينقصه موافقتنا أوّلًا، ونحن لم ولن نوافق أو نوقِّع على صكّ فيه ذلّنا واستعبادنا.

إنَّ فِلَسطين بلاد العرب وحدهم، لا بلاد الإنجليز أو اليهود أو عصبة الأمم!

وما دام الانتداب قائمًا، فلا أمل للعرب في الاستقلال أو قيام الحكم الذَّاتيّ في البلاد؛ لأنَّ الوطن القوميّ اليهوديّ يحول دون حصول العرب على هذا الحكم.

إنَّ تصرُّف بريطانيا بفلسطين استنادًا إلى هذا الصكّ هو من قبيل تصرُّف إنسان (خارج على القانون) بملك غيره، وهذا يعدّ جرمًا. وموافقة اثنتين وخمسين دولةً على هذا التَّصرُّف، هو من قبيل الاشتراك بالجرم وتوقيعها على الصكّ هو من قبيل أداء شهادة زور!

إنَّ مثل هذا الصكّ، الذي يستند إليه يهود العالم بحقّهم في فِلَسطين، كمثل من يأتي إليك أيُّها القارئ، وبيده سند موقَّع عليه من اثنين وخمسين شاهدَ زورٍ، قائلًا لك: «إنَّ هذا البيت الذي تسكنه هو لي، وعليك أن تخليَه بأمر موقِّعي هذا السَّند!».

قد ظنُّوا العرب ضعفاء، ولكنَّنا لسنا ضعفاء، إنَّنا أمَّة لا نقبل الذُّلّ أيًّا كان مصدره، ولنا في تاريخنا ومجدنا وحضارتنا ما يجعل فرض هذا الذُّلّ علينا وظيفةً شاقَّةً على منفِّذيها، أو من يحاولون القيام بتنفيذها!

إنَّ من شيم العرب الصَّبر، ولكن إلى حين، أمَّا الذلّ فليس في طبيعة العربيّ استعداد لاحتماله!

لقد جارينا بريطانيا العظمة في سياستها إلى أقصى حدود المجاراة، فطلبنا منها بعد احتمال ضغط ثمانية عشر عامًا، مطالب غايةً في التَّواضع. طلبنا وقف الهجرة اليهوديَّة البغيضة، والمحافظة على الوطن من الضَّياع، وتأسيس حكم وطنيّ في البلاد، وهذا الأخير تقضي به المادَّة ٢٢ من نظام عصبة الأمم التي خلقت بدعة الانتداب!

ولكنَّ هذه المطالب الثَّلاثة على تواضعها، لم تنظر إليها بريطانيا بعين العطف، ولم تحترم إرادة مليون نسمة عربيَّة عبَّرت عن شعورها بأقصى ما لدى أيّ شعب من وسائل التَّعبير، واحتملت في إظهار هذا الشُّعور ما لا تستطيع أيَّة أمَّة احتماله، أو الصَّبر عليه!

إنَّ بريطانيا، كلّما طالبناها بالحكم الذَّاتيّ قالت إنَّ عليها في صكّ الانتداب التزامًا نحو اليهود بتأسيس وطنهم القوميّ، وهذا الالتزام، كما أثبتته تجارب ثمانية عشر عامًا، قائم على إيجاد أكثريَّة يهوديَّة في البلاد، والأكثريَّة اليهوديَّة لم تحصل بعد، ومتى حصلت تقوم بريطانيا بتأسيس الحكم الذَّاتيّ، وحينئذ يكون نصيب العرب من هذا الحكم، كنصيب القابض على الرِّيح!

هذه هي حقيقة صكّ الانتداب، وعلى عرب فِلَسطين أن يحولوا دون تنفيذ فحوى هذا الصكّ المزيَّف!

الجريمـة الكبرى!

أفتونـا - بربِّكـم - أيُّها النَّاس ماذا نصنع؟

كنَّـا نسـمع، ولا نـزال، أنَّ هنالـك عـدلًا إنسـانيًّا، يجـوب العـالم في كلّ يـوم، ثـمَّ يسـتقرّ في بـلاد الإنجليـز!

وكنَّـا نقـرأ في الصُّحـف أنَّ كلمـة «العـدل البريطـانيّ» هـي آخـر مـا يتعـزَّى بهـا امـرؤ ألجأتـه الظُّـروف للمثـول أمـام القضـاء!

ولكـنَّ هـذا العـدل، وإن أحسسـنا بـه كأفـراد، فنحـن لم نحـسّ بـه كأمَّـة، بدليـل وقـوف بريطانيـا العظمـى مكتوفـة اليديـن أمـام أعظـم جريمـة تُقـتَرَف في فِلَسـطين بعلمهـا، وتحـت سـمعها وبصرهـا!

وأيَّـة جريمـة يسـتطيع التَّاريـخ أن يذكرهـا في عصـوره المظلمـة، تـوازي في أسـبابها ونتائجهـا الجريمـة القائمـة الآن، بتحويـل بـلاد صبغتهـا الدُّهـور بصبغـة عربيَّـة، بسـمائها وأرضهـا وهوائهـا ولغتهـا وعاداتهـا وتقاليدهـا وكلّ شيء فيهـا، إلى بـلاد يهوديَّـة بقـوَّة المـال وعسـف القـوَّة؟!

وكلَّـما طالـب العـرب بريطانيـا العظمـى بوقـف هـذه الجريمـة، قالـت: إن هـي إلَّا منفِّـذة لإرادة اثنتـين وخمسـين دولـة وقَّعـت عـلى صـكّ الانتـداب!

والحقيقـة أنَّ بريطانيا العظمى في الواقع:

هـي التي وضعت نصَّ وعد بلفور

وهـي التي أدمجته في صكّ الانتداب

وهي التي انتدبت نفسـها على تنفيذه

وهـي التي دفعـت بعصبة الأمم إلى المصادقة عليه

وهـي التـي فسَّرتـه في المـاضي، وتفـسِّره الآن، وسـتفسِّره في المسـتقبل بمـا يتَّفـق ومصلحتهـا، لا مصلحـة العـرب أصحـاب البـلاد!

إنَّ إهـمال بريطانيـا العظمـى لنـا، وإغضاءهـا عـن اسـتماع شـكوانا بالطُّـرق السِّـلميَّة دفعانـا إلى الثَّـورة واتِّخـاذ أعـمال العنـف وسـيلة مـن وسـائل إسـماع الصَّـوت!

لم تبـقَ لدينا وسـيلة غيرهـا للتَّعبير عمَّا نحن فيه من ظلم وإرهاق!

قـد أردنـا إسـماع بريطانيـا العظمـى صوتنـا لا تهديدهـا، إنَّنـا نعلـم قوَّتنـا وقوَّتهـا.

وبريطانيـا العظمـى كحكومـة ديمقراطيَّـة، عريقـة في ديمقراطيَّتهـا، كان عليهـا أن تحـترم هـذه الإرادة، وأن تقـدِّر هـذه الوسـائل حـقّ قدرهـا في التَّعبـير عـن الشُّـعور!

كان عليهـا أن تعتبرهـا درسًـا بليغًـا في التَّضحيـة، لا عمـلًا إرهابيًّـا كـما تدَّعـي، لا تخشـاه إلَّا كلّ حكومـة أوتوقراطيَّـة مسـتبدَّة!

إنَّنـا قـد أظهرنـا حسـن نيّتنـا نحـو بريطانيـا، ولكـنَّ بريطانيـا - إلى الآن - لم تقابلنـا بحسـن النِّيَّـة!

إنَّهـا تنكـر علينـا أن نعيـش في وطننـا آمنـين، ونحـن يعـزّ علينـا جـدًّا أن يكـون لنـا شركاء طامعـون في هـذا الوطـن!

فـإذا كانـت القـوَّة للحـقّ، فنحـن أصحـاب حـق! وإذا كان الحـقّ للقـوَّة، فلـم تحلـل هـذه القـوَّة لأنـاس، وتحـرَّم عـلى آخريـن!

أفتونـا - بربِّكـم - أيُّها النَّاس ماذا نصنع؟

عدلٌ منكوب!

تصريح لوزير المستعمرات البريطانية مأخوذ من تقرير رفعته لجنة الانتدابات الدَّائمة إلى عصبة الأمم في سنة ١٩٣٠

١) إنَّ الالتزامات المفروضة في صكّ الانتداب على فلسطين نحو فريقي السُّكَّان (العرب واليهود) هي ذات قيمة متساوية!

٢) وإنَّ الالتزامات المزدوجة على الدَّولة المنتدبة ليست غير قابلة للتَّطبيق بحال من الأحوال!

والحكومة البريطانيَّة مصمِّمة على ممارستها سلطتها بلا تحيُّز وبروح العدل!

مهما تفنَّنت بريطانيا العظمى في صوغ عبارات العدل والسَّلام والمسؤوليَّة، ومهما تعدَّدت طرقها السِّياسيَّة في تخدير أعصاب العرب، فلا نظنُّها تستطيع بعد اليوم أن تنزع من نفوسهم الاعتقاد بسوء نيِّتها نحوهم، والعمل على إبادتهم!

وإذا كانت بريطانيا العظمى لا تزال تشكّ في أن يكون هناك ظلامة للعرب، فأحرى بالعرب أن يشكوا هم أيضًا في أهليَّة بريطانيا العظمى على تحمُّل مسؤوليَّة هذا الانتداب، الذي جرَّ على فِلَسطين كلّ أنواع المآسي والآلام!

ثمانية عشر عامًا تمضي على ممارسة بريطانيا انتدابها على البلاد، كلّها تحيُّز لليهود، وكلّها ظلم للعرب، تأتي اليوم وتقول إنَّها مصمِّمةٌ على ممارسة سلطتها بلا تحيُّز وبروح العدل!

ثمانية عشر يومًا ونحن نشكو، ونسمع بهذا العدل ولا نراه، اللهم إلَّا في تقارير لجان توضع على الرَّفّ، وفي بيانات تنمّقها سياسة التَّذبذب

البعيـدة القـرار، وبعـد هـذا كلّـه، تمكـنّ علينـا بريطانيـا العظمـى بلجنـة تحقيـق ملكيَّـة للتَّثبُّـت مـن ظلامتنـا. تريـد منَّـا أن نعتمـد عـلى تقاريـر لجـان ثبـت أنّهـا كانـت سرابًـا. تريـد منَّـا أن نصدِّقهـا هـذه المـرَّة، وهـي لم تصـدق بوعودهـا لنـا ولا مـرَّة!

ثـمَّ مـاذا هـذا الـذي تعدنـا بـه حتَّـى نصدّقـه؟ مـا دامـت تقـول إنّ مطالـب العـرب لا تتَّفـق والانتـداب؟!

فـإذا كان وقـف هجرة اليهود لا يتَّفق والانتداب

وإذا كان منـع بيـوع الأراضي لهم لا يتَّفق والانتداب

وإذا كان إنشـاء حكومة وطنيَّة لا يتَّفق والانتداب

فـما هـو هـذا الـذي نرجـوه، إذن، أن يتَّفـق هـو والانتـداب، اللهـم إلَّا إذا كان الانتـداب نفسـه هـو الـذي يتَّفـق والانتـداب!

سـل بريطانيـا العظمـة بمـاذا تـزن الهجـرة اليهوديَّـة إلى البـلاد، تجـب: بقـوَّة الاستيعاب!

سـلها مـا هـي حـدود الوطـن القوميّ اليهـوديّ، تجـب: أن يكـون لفريقـي السُّـكّان ذات القيمـة المتسـاوية!

سـلها مـا هـي صلاحيَّـة اللَّجنـة الملكيَّـة، تجـب: عـدم التَّعـرُّض لنصـوص الانتـداب!

سـلها ما هو غرض الانتداب، تجب: القيام بالالتزامات المزدوجة!

بهـذه الأجوبـة الغامضـة تريـد بريطانيـا العظمـى منـا أن نصدّقهـا، وبهـذه الأسـاليب الماكـرة تريـد منَّـا أن نطمـئن إلى وعودهـا وتصريحاتهـا!

هنالك قصَّة تعلّمتها منذ صباي في المدرسة، بعنوان «الولد الكذوب»، فاصغِ إليها أيُّها القارئ؛ لأنَّ فيها الحكمة كلّ الحكمة.

تقول القصَّة: «كان ولد يرعى غنم القرية، أراد أن يضحك على أهل القرية، فصاح: الذئب! ... الذِّئب!

فخرجوا بفؤوسهم وعصيّهم لنجدته، ولكن سرعان ما عادوا على أعقابهم خائبين.

أعاد الولد العمل نفسَه مرَّةً ثانية فصَّدقوه. أمَّا في المرَّة الثَّالثة، فقد جاء الذِّئب بالفعل، وشرع يفتك بالغنم، فصاح الولد وكرَّر الصِّياح: الذِّئب! الذِّئب! فسمع أهل القرية صياحه، ولكنَّهم لم يصدِّقوه!».

إنَّ في إهمال بريطانيا شكاوى العرب الصَّريحة الواردة في تقارير لجان التَّحقيق المختلفة، وتغاضيها عن الأمر الواقع، واستنادها بعد كلّ هذا، في تنفيذ سياستها الحاضرة، إلى تقرير عتيق قدَّمه بعض أعضاء لجنة الانتدابات غير المسؤولين، لهو الدَّليل، كلّ الدَّليل على إفلاس سياسة بريطانيا، لم تنفع معه طرق المكر والخداع، فراحت اليوم تؤيّده بقوَّة الحديد والنَّار!

مستعمرة!

من الدّلف إلى تحت المزراب

«لقد عرّضنا أنفسنا سابقًا لصفعة أليمة في جنيف من أجل سياستنا في فِلَسطين، فعلينا أن نتخلّى عن الانتداب لمجلس العصبة، وأن نصلح الغلط قبل فوات الفرصة، ولقد عانى الفرنسيُّون مشاكل ومصاعب جمَّة في سوريا، ولكنَّهم قرَّروا أخيرًا وضع حدّ لهذه المشاكل. كذا يجب أن نحذو حذوهم في هذا المنهج المعقول»

«اللورد بيفر بروك»

مقدّمة

شعر اليهود بخيبة الآمال في تحقيق أطماعهم في فِلَسطين، فراحوا يقترحون على بريطانيا العظمى أن تضمّها إلى أملاكها بجعلها مستعمرة تابعة للتَّاج، تمهيدًا لفصلها عن البلدان العربيّة؛ لكي لا يبقى للعرب أيّ أمل في تحرُّر هذا البلد، بعد زوال الانتداب عنه.

ما هي المستعمرة؟

لكلمة مستعمرة في قاموس بريطانيا السِّياسيّ معنيان:

١) مستعمرة تاج، وهي تطلق على أيَّة بلاد تحتلُّها بريطانيا بالفتح التِّجاري أو العسكريّ، وليس لها أدنى اتِّصال جغرافيّ أو ثقافيّ بغيرها من البلدان المجاورة.

٢) دومنيون، وهي تطلق على جميع الأراضي الواقعة تحت سلطة جلالة الملك، منها المملكة المتَّحدة؛ أي الجزر البريطانية. وفي حالات خاصَّة، تضمّ البلاد المشمولة بحماية جلالته، أو التي قبل جلالته الانتداب

عليها من قِبَل عصبة الأمم، وبحسب القانون الإنجليزيّ، فإنَّ جميع الممتلكات البريطانيَّة - خلا المملكة المتَّحدة - تعتبر ضمن الدومنيون.

الدّومنيون

والدّومنيون هي كلّ مستعمرة ذات تشريع محلِّيّ أو مركزيّ، وقد كانت هذه التَّسمية قبل «قانون وستمنستر» سنة ١٩٣١ تُطلَق على جميع الممتلكات البريطانيَّة مثل جزيرة «مان» وجزر القنال، والهند الإنجليزيَّة مع مياهها. ولكن بعد صدور القانون المذكور، تحدَّدت كلمة دومنيون وأصبحت تُطلَق فقط على كندا، وزيلندة الجديدة، وأستراليا، وجنوبي أفريقيا، وإيرلندا الحرّة. ولها الحقّ في أن تكون منتدبة على غيرها من البلدان مثل أستراليا، فهي منتدبة الآن على غينيا الجديدة. وزيلندة الجديدة منتدبة على ساموا الغربية، واتِّحاد جنوبي أفريقيا منتدب على أفريقيا الجنوبيَّة الغربيّة.

بلاد الانتداب

أمَّا بلاد الانتداب فهي المقاطعات التي تُدار بوساطة الحكومة البريطانيَّة بالذَّات، أو بوساطة حكومات الدّومنيون بمقتضى نظام عصبة الأمم. وقد أحيلت البلدان المذكورة إلى حكومة بريطانيا العظمى بوساطة معاهدات الصّلح مع ألمانيا وتركيا سنة ١٩١٩ وسنة ١٩٢٣ استنادًا إلى نصّ المادة ٢٢ من نظام عصبة الأمم. وبموجب هذه المادَّة لا يحقّ لبريطانيا العظمى أن تتصرَّف بفلسطين كمستعمرة تاج أو دومنيون، أو أن تضمّها إلى أملاكها؛ لأنَّها من البلدان المنتدب عليها من حرف (أ)، بمعنى أنَّها مستقلَّة، ولكنَّها تبقى لمدَّة معيّنة تحت إشراف الدَّولة المنتدبة، إلى أن تصبح قادرةً على حكم نفسها بنفسها. كما حصل قبلًا

في العـراق ومـا هـو حاصـل الآن في سـوريا؛ لأنَّ الانتـداب يتضمَّـن معنـى الوصايـة فقـط، لا ملكيَّـة البـلاد!

فلسطين كأخواتها

والمعـروف أنَّ فلسـطين قسـم مـن البـلاد العربيَّـة التـي انسـلخت مـن الإمبراطوريَّـة العثمانيَّـة، وهـي في مركزهـا الحـالي لا تقـلّ ثقافتهـا السِّياسـيَّة والمدنيَّـة عـن أيّ قسـم مـن الأقسـام العربيَّـة الأخـرى مثـل العـراق وسـوريا. وإذن، فـلا يحـقّ لبريطانيـا العظمـة أن تفكّـر في جعلهـا مسـتعمرة، أو أن تتنـازل عـن انتدابهـا عليهـا لدولـة أخـرى، بـل الواجـب يقـضي عليهـا بـأن تعامـل فلسـطين كمعاملتهـا للعـراق، وكمعاملـة فرنسـا لسـوريا.

إنَّ ثورتنـا حركـة اسـتقلاليَّة محضـة، شـبيهة بحركتـي العـراق وسـوريا، فلـماذا لا يكـون نصيبنـا منهـا كنصيـب ذينـك القطريـن اللَّذيـن نشـترك وإيَّاهـما بوطـن واحـد، ولغـة واحـدة، وقوميَّـة واحـدة؟

ألا إنَّ النّجـم أقـرب لليهـود مـن أن يجعلـوا فلسـطينَ وطنًـا قوميًّـا لهـم، أو أن تجعلهـا بريطانيـا العظمـى مسـتعمرة!

والتَّاريخ على ما نقول شـهيد!

سـوء نيَّة!

تنصّ الفقرة ٤ من المادّة ٢٢ من دستور عصبة الأمم على ما يأتي:

«إنَّ بعـض البـلاد كانـت في القديـم تابعـة للإمبراطوريَّـة العثمانيَّـة. وقـد بلغـت درجـة واقيـة يمكـن معهـا الاعـتراف مبدئيًّـا بكيانهـا كأمـم مسـتقلَّة. عـلى أن تسـتمدّ الإرشـاد والمسـاعدة مـن دولـة أخـرى حتَّـى يـأتي الزَّمـن الـذي تصبـح فيـه قـادرةً عـلى الوقـوف بمفردهـا»

مقدّمة

يسـتغرب كلّ مـن وصلتـه أنبـاء الثَّـورة في فِلَسـطين، وعـرف شـيئًا عـن ظلاماتنـا نحـن العـربَ، وإنـكار حقوقنـا، والضَّغـط عـلى حريَّاتنـا الدّينيَّـة والمدنيَّـة، كيـف أنَّنـا صبرنـا مـدَّة ثمانيـة عـشر عامًـا عـلى سياسـة مذبذبـة، لا تقـوم إلَّا عـلى سـوء النِّيَّـة!

ولكـن، مـن كان موقفـه كموقفنـا يثـق بصداقـة بريطانيـا، ويعتمـد عـلى شرفهـا في الوفـاء بالعهـود، يعذرنـا في هـذا، ولا يشـدِّد النَّكـير علينـا.

إنَّنـا بنينـا ثقتنـا ببريطانيـا، عـلى تلـك الصَّداقـة التـي وضـع أسسـها المرحـوم الملـك حسـين بينـه وبينهـا، واشـترك وإيَّاهـا في الحـرب الكـبرى ضـدّ حكومـة تركيـا المسـلمة التـي كان تابعًـا لهـا.

وكلّ مـرة نشـتبه فيهـا بحسـن نيَّـة بريطانيـا العظمـى نحونـا، كنَّـا نقـول «لعـلَّ لهـا عـذرًا ونحـن نلـوم».

ولكـنَّ تجـارب ثمانيـة عـشر عامًـا علّمتنـا جيِّـدًا، إلى أيّ حـدّ يمكننـا أن نثـق ببريطانيـا العظمـى، وإلى أيّ حـدّ نسـتطيع الاعتـماد عـلى شرفهـا في تنفيـذ العهـود!

وطن قوميّ يهوديّ

فُرِضَ الانتداب على فلسطين، فَجَرَّ معه الوطن القوميّ اليهوديّ، وقد شعرنا يومئذ بخطر هذا الوطن علينا بالرّغم من قلّة عدد اليهود في ذلك الحين. وبالرّغم من أكثريَّتنا السَّاحقة، التي كانت تسيطر على الموقف.

وجاءت اضطرابا سنة ١٩٢١ فدلَّت على تخوّفنا من هذا الأمر، وشعرت بريطانيا العظمى بهذا التَّخوُّف فبعثت إلينا بوزير مستعمراتها، المستر تشرتشل، ليزيل مخاوفنا، ويفسّر لنا معنى الوطن القوميّ اليهوديّ، بعبارة مطَّاطة، تحتمل الشَّكّ واليقين!

قال سنتئذٍ بالحرف الواحد: «إنَّ حكومة جلالة الملك لم تفكِّر في وقت من الأوقات بإخضاع عرب فِلَسطين أو محوهم، أو قتل لغتهم وآدابهم؛ لأنَّ عبارات تصريح بلفور لا تشير إلى تحويل فلسطين بجملتها إلى وطن قوميّ لليهود، وإنَّما تعني أنَّ وطنًا كهذا يجب تأسيسها في فِلَسطين!»

وقد مضت مدَّة طويلة على تفسير الوزير، والبلاد تتهوَّد يومًا بعد يوم، والهجرة اليهوديَّة تتدفَّع على البلاد بسلسلة هندسيَّة صاعدة، وقد حاول العرب عبثًا أن يعرفوا من حكومة بريطانيا عدد اليهود الذي يجب أن يتكوَّن منه الوطن القوميّ!

قوَّة الاستيعاب

وبعد ثماني سنين، شعرت بريطانيا بأنَّ حيلتها فُضِحَت، ودلَّت اضطرابات سنة ١٩٢٩ على أنَّ تصريح المستر تشرتشل لم يطمئن العرب، ولم يقلِّل من مخاوفهم من الهجرة، لا بقليل ولا بكثير، فعمدت إلى تعبير جديد، تخدّر به أعصابهم، فكان «قوّة البلاد على الاستيعاب! ...».

وكلمة «استيعاب» كانت مطَّاطة أيضًا، فلا العرب استطاعوا أن يفهموا مدى هذا الاستيعاب، ولا حكومة بريطانيا حدَّدت قوَّته، وظلَّت هجرة اليهود إلى فلسطين مستمرَّة، وظلَّ امتلاك الأراضي مستمرًّا وباستمرار الأخير، استمرَّت «قوَّة الاستيعاب!».

الالتزامات المزدوجة

مضت أربع سنوات أخرى، وبريطانيا تمعن في غشّ العرب، وتخدير أعصابهم بكلمة «استيعاب» إلى أن تحقَّق لديهم سوء نيّتها، وأنَّها لا تريد بهم خيرًا، فقاموا سنة ١٩٣٣ بتظاهرات دامية، يعبِّرون بها عن عدم ثقتهم ببريطانيا، فكانت النَّتيجة أن جاءت إليهم هذه المرَّة بنغمة جديدة، وتعبير جديد، هو «الالتزامات المزدوجة».

والالتزامات المزدوجة، هي التي نصَّ عليها صكّ الانتداب، لكلّ من اليهود والعرب، وهي تتألَّف من شقَّين متناقضين، أو التزامين متباينين، هما:

١) تكون الدَّولة المنتدبة مسؤولة عن جعل البلاد في أحوال سياسيَّة وإداريـة واقتصاديَّة، تكفل إنشاء الوطن القوميّ اليهوديّ!

٢) ضمان الحقوق المدنيَّة والدِّينيَّة للطَّوائف غير اليهوديَّة في فِلَسطين!

وقد تمسَّكت الحكومة البريطانيَّة بهذه العبارة كتمسُّك المؤمن بآيات الله المنزلة التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلها، حتَّى أصبحت قصَّة هذه الالتزامات كقصَّة «إبريق الزَّيت» فلا ينتهي القول بها إلَّا بتحويل فلسطين بجملتها إلى وطن قوميّ لليهود، وجعل روح إسرائيل يرفّ على وجهها!

هيبة الإمبراطوريَّة

مضت ثلاث سنوات أخرى والبلاد في حالة غير طبيعيَّة، ونقمة العرب على بريطانيا تغلي في صدورهم غلي الماء في المرجل؛ حتَّى انفجر وعمَّت الاضطرابات البلادَ كلّها، وقام العرب يدافعون عن حقوقهم في بلادهم، بعد أن أساءت بريطانيا إلى هذه الحقوق، ولم تحسن الدِّفاع عنها!

أحسَّت بريطانيا بنقمة العرب، وشعرت بأنَّهم جادُّون في حركتهم هذه المرَّة، ففتَّشت في قاموس أضاليلها السِّياسيَّة عن تعبير يبرِّر موقف العناد الذي وقفته، ويخرجها من المأزق الحرج الذي أوقعها فيه العرب، فكان «المحافظة على هيبة الإمبراطوريَّة».

ولكنَّ هيبة الإمبراطوريَّة البريطانيَّة وكلّ إمبراطوريّة في العالم، لا تقوم على السَّيف والمدفع، بل تقوم على إنصاف الأمم اليائسة، والشُّعوب المظلومة!

أخطـار الهجـرة اليهوديَّة

«إنَّ سياسـة حكومـة جلالتـه التـي جئـت لتطبيقهـا في فِلَسـطين هـي تشـجّع الهجـرة اليهوديَّـة إلى درجـة يتمكَّـن فيهـا اليهـود مـن أن تصبـح مصالحهـم مسـيطرة عـلى البـلاد، خـلال خمسـين أو مائـة سـنة، أو بمعنـى آخـر، أن يؤمّـن لهـم إنشـاء حكومـة يهوديَّـة في فِلَسـطين»»

«السير هربرت صموئيل»

١) الخطر السِّياسيّ

كانـت الهجـرة اليهوديَّـة في أول عهدهـا ضئيلـة جـدًّا، ولم يتمثَّـل خطرهـا للعـرب بصـورة جليَّـة إلَّا حينـما أصبـح المهاجـرون يدخلـون للبـلاد بكمِّيَّـات هائلـة جـدًّا، سـواء أكان ذلـك عـن طريـق الهجـرة الشَّرعيَّـة أو غـير الشَّرعيَّـة، وغايـة الصّهيونيَّـة مـن ذلـك إتخـام فلسـطين بالمهاجريـن اليهـود؛ حتَّـى يصبحـوا الأكثريَّـة فيهـا في زمـن قريـب.

وفكـرة اليهـود بالأكثريَّـة العدديَّـة في البـلاد، هـي التـي أزعجـت العـرب، ودفعـت بهـم إلى إعـلان الجهـاد بصـورة مسـتمرَّة، متحمِّلـين في سـبيله كلّ خسـارة تلحـق بهـم في الأمـوال والأرواح والممتلـكات؛ لأنَّ اسـتمرار هجـرة اليهـود عـلى هـذا المعـدَّل، دون أخـذ الاحتياطـات لوقفهـا، أضرَّت بهـم كثـيرًا، لا كانـت سـهمًا قتّـالًا مصوّبًـا إلى قلـب كيانهـم السِّـياسيّ كشـعب لـه الحـقّ في الحيـاة الطَّليقـة الحـرَّة[1].

١ من جملة قرارات مؤتمر الجمعية الصهيونية الإصلاحية في فيينا سنة ١٩٣٦، القرار التَّالي: «إنَّ المؤتمر يقرّر أن كلّ تساهل مع الرب، أو القبول بمنحهم حقوقًا سياسيَّة، يعتبر خيانةً للشَّعب اليهوديّ، ولا يحقّ لكل قائل بهذه الفكرة أن يمثِّل الشَّعب اليهوديّ»

وقد سبق للجنة الاستفتاء الأمريكيَّة سنة ١٩١٩ أن قالت بهذا الشَّأن:

«إنَّ تسعة أعشار سكَّان فلسطين كلّهم، يرفضون البرنامج الصّهيونيّ رفضًا باتًّا، فتعريض شعب هذه حالته النَّفسيَّة لمهاجرة يهوديَّة لا حدَّ لها، ولضغط اقتصاديّ اجتماعيّ متواصل؛ ليسلم أرضه نقض شائن لمبادئ العدل، واعتداء صارخ على حقوقه، وإن كان ضمن صور قانونيَّة»

٢) الخطر الاقتصادي

وهنالك خطر اقتصاديّ ناجم عن استمرار الهجرة اليهوديَّة إلى فلسطين؛ لأنَّ اليهود وهم لا يزالون الأقليَّة فيها، قد أصبحوا مسيطرين على اقتصاديَّات البلاد، وقابضين على تجارتها وصناعتها والموارد الطَّبيعيَّة فيها، مثل امتياز شركة كهرباء روتمبرغ، وامتياز شركة تجفيف الحولة، وامتياز شركة بوتاس البحر الميت إلخ.

ومن المعلوم أنَّ إغراق فلسطين بأناس عرفوا بمكرهم ومقدرتهم في تعاطي التِّجارة والصِّناعة، مقصود به الاستيلاء على موارد البلاد، ونزعها من أيدي أصحابها الشَّرعيِّين.

كما أنَّ الهجرة ذاتها تعدّ خطرًا على أهالي البلاد؛ لأنَّ المهاجرين الغرباء يزاحمونهم في جميع أعمالهم، ومزاحمتهم هذه تثير شعور اللقلق والمقت في نفوس السُّكَّان الوطنيِّين فتدفع بهم إلى القيام بأعمال العنف في سبيل الحياة!

والمهاجرون اليهود لا يزاحمون العرب في الأعمال اليدويَّة فحسب، بل يزاحمونهم أيضًا في الوظائف والأمور الكتابيَّة، وخصوصًا بعد اعتراف الحكومة باللُّغة العبريَّة لغةً رسميَّةً.

٣) الخطر الاجتماعي

وكـما أنَّ في الهجـرة اليهوديَّـة خطريـن؛ سـياسيّ واقتصـاديّ كـما مـرّ، فـإنَّ فيهـا خطـرًا ثالثًـا، هـو الخطـر الاجتماعـيّ، هـذا الخطـر الـذي أدخـل للبـلاد الشّـيوعيَّة والإباحيَّـة، وهـدم نظـام العائلـة وكلّ فكـرة هدَّامـة!

وبديهـي (كـما قالـت لجنـة هايكرافـت في تقريرهـا عـن اضطرابـات سـنة ١٩٢١) أنَّ انتقـال اليهـود مـن المعيشـة الذَّليلـة المزدحمـة التـي كانـوا يعيشـونها خـارج فلسـطين، إلى المعيشـة الحـرَّة التـي ابتـدأوا يتمتَّعـون بهـا في فلسـطين، أهاجـت عواطفهـم إلى درجـة قصـوى، باتـوا معهـا ثملـين بخمـرة الوطـن القومـيّ، الـذي طالمـا حنّـوا لرؤيتـه، وحلمـوا بالعـودة إليـه!

ويكفـي أن تعـترف الحكومـة نفسـها في تقريرهـا عـن فِلَسـطين لسـنة ١٩٣٥، بـأنَّ اليهـود ارتكبـوا في فِلَسـطين جرائـم أخـرى مثـل تزييـف النُّقـود، وتهريـب الأسـلحة، وتحطيـم الصَّناديـق الحديديَّـة بأسـاليب فنيَّـة، وتزييـف جـوازات السَّـفر، والاحتيـال عـلى البنـوك، وتهريـب المخـدِّرات، وغيرهـا مـن الجرائـم التـي لم تكـن معروفـةً في فِلَسـطين مـن قبـل. عـدا عـن أنَّ اليهـود نسـاءً ورجـالًا، أصبحـوا ينظـرون إلى العـرب بعـين الازدراء، وأصبحـت جرائهـم تنعتهـم تـارةً بالسَّـفَّاكين، وطـورًا بوحـوش الصَّحـراء، وصـاروا يخالفـون العـادات والآداب القوميَّـة التـي ألفوهـا[٢].

٢ أصدر رئيس المحكمة المركزيَّة المستر بلانكيت أمرًا بمنع دخول اليهود إلى قاعة المحكمة بألبسة غير لائقة كما يرتديها بعض الفتيات والشّباب اليهود؛ لأنَّ هذه الألبسة تعدّ انتهاكًا لحرمة المحكمة! ودخل المحامي اليهودي «مزراحي» قاعة المحكمة في بزَّة غير محتشمة (أي بدون ترة وبقميص مشمر الأكمام) فدعاه سعادة قاضي القضاة السير ميخائيل ماكدونالد إلى منصَّة القضاء، وبعد أن أنَّبه على دخوله قاعة المحكمة بهذه الهيئة أمره بمغادرتها؛ لأنَّه عدَّ وجوده فيها بهذا اللّباس انتهاكًا لحرمتها! وقعت الحادثتان المذكورتان الأولى في أواخر شره تموز والثّانية في أول شهر آب سنة ١٩٣٦.

فليـس مـن الغريـب إذن أن يتخـوَّف العـرب مـن الهجـرة اليهوديَّـة، ومـن مجـيء هـؤلاء النَّـاس الغربـاء، ومـن تحقيـق أحلامهـم.

يا لسخافة الدّهر!

اليهود يحرسون طريق الإمبراطورية

من المبادئ التي أعلن الحلفاء في الحرب الكبرى انَّهم يحاربون لأجلها؛ المبدأ التَّالي: «إنّ حلّ كلّ مسألة سواء أكانت تتعلَّق بالأرض أو السِّيادة او المسائل الاقتصاديَّة والسِّياسيَّة، يجب أن يُبنى على قَبول النَّاس الذين تتعلَّق بهم قبولًا حرًّا، لا على المصالح الماديَّة أو لفائدة أيَّة دولة أو أمَّة أخرى ترغب في حلّ آخر؛ خدمةً لنفوذها أو سيادتها»

المحافظة على طرق الإمبراطوريَّة البريطانيَّة، نغمة قديمة العهد، كانت بريطانيا وما تزال، تردِّدها في كلّ فرصة سنحت لها؛ لتبرير استعمارها لأيَّة بقعة من بقاع الأرض!

وقد بلت البلاد العربيَّة من هذه النَّغمة الشَّيطانيَّة، ما جعلها لقمة سائغة في فم الأسد البريطانيّ.

ولو كانت هنالك بقعة من الأرض، في أميركا مثلًا، أو في أقاصي الصِّين، لم تطأها بعد قدم مستعمر، لجاءت بريطانيا ووضعت قدمها فيها؛ بحجَّة أن تلك البقعة من أخطر بقاع الأرض؛ محافظةً على سلامة الإمبراطوريَّة وطرق مواصلاتها!

وإذا لم العرب مضطرين بهذه النَّظريَّة الملعونة، وكان المهمّ لدى بريطانيا العظمى - في الدّرجة الأولى - المحافظة على طرق مواصلاتها الإمبراطوريَّة كما تقول، فإنَّ مراكز هذه الطُّرق وقواعدها الحربيَّة، يقع معظمها - إذا لم نقل كلّها - في بلاد عربيَّة، وتشرف عليها شعوب عربيَّة، مثل قناة السّويس، وحيفا، والعقبة، وبوغاز باب المندب، وعدن، والبصرة؛

مـمَّا يـدل دلالـة واضحـة عـلى أنَّ بريطانيـا العظمـى في حاجـة قصـوى إلى صداقـة العـرب، وبهـذه الصَّداقـة وحدهـا – لا صداقـة غيرهـم، كاليهـود – تسـتطيع أن تطمـئن عـلى هـذه الطُّرق التـي هـي بمثابـة الشَّرايـين في جسـم إمبراطوريَّتهـا.

وأمـام هـذه الحقيقـة الواقعـة، يقـوم النَّائـب الكومنـدور لامبسـن في مجلـس العمـوم ويقـول: «ومـن أيـن لنـا أن نعلـم، أنَّـه لا يقـوم في وسـط أوروبـا تحـوُّل عسـكريّ، يزحـف للاسـتيلاء عـلى قنـاة السّـويس، التـي تعـدّ في مقدّمـة الممتلـكات العالميَّـة المطمـوع فيهـا، فيجـب أن يكـون لنـا في فلسـطين كتلـة مـن البـشر (اليهـود) تجعـل تلـك البـلاد موطنًـا لهـا، وتدافـع عنهـا ضـدّ مهاجميهـا».

أمَّـا أن تكـون قنـاة السّـويس في مقدّمـو الممتلـكات العالميَّـة المطمـوع فيهـا، فهـذا لا نشـكّ فيـه، وأمَّـا أن تكـون في فلسـطين كتلـة مـن اليهـود للمحافظـة عليهـا، فهـذا مـا لم يسـتطع العـرب فهمـه، إلَّا إذا كان حـضرة النَّائـب المحـترم يعيـش في عـالم الخيـال، المسـتمدّ مـن وحـي إسرائيـل!

نعـم، لا يسـتطيع صاحـب العقـل السَّـليم أن يصـدّق بـأنّ حـشر ٤٠٠ ألـف يهـودي أو أكـثر في فلسـطين، يضمـن بقـاء قنـاة السّـويس تحـت الرَّايـة الإنجليزيَّـة، والأقطـار التـي تقـع فيهـا هـذه القنـاة وغيرهـا مـن طـرق المواصـلات الإمبراطوريَّـة تعـجّ بثمانـين مليـون عـربيّ، يعرضـون صداقتهـم عـلى بريطانيـا العظمـى للمحافظـة عـلى تلـك الطّـرق!

ولسـنا نـدري كيـف بلـغ الجهـل بالنَّائـب المذكـور إلى ان يفضّـل صداقـة ٤٠٠ ألـف يهـوديّ، لا يسـتطيعون حمايـة أنفسـهم، عـلى صداقـة ثمانـين مليـون عـربيّ لهـم خطرهـم العظيـم، ولهـم أثرهـم الكبـير في سياسـة الإمبراطوريَّـة البريطانيَّـة العالميَّـة!

يقـول وزيـر المسـتعمرات المسـتر أورمسـبي غـور: «وهنالـك صداقـة تقليديَّـة بـين البريطانيِّـين والعـرب تعـرف الحكومـة البريطانيَّـة قيمتهـا، وترغـب رغبـة صادقـةً في أن تحافـظ عليهـا».

فـإذا كانـت صداقـة بريطانيـا العظمـى التَّقليديَّـة للعـرب تقـوم عـلى هـذا الأسـاس، وكان في مجلـس العمـوم كثـيرون مـن أمثـال النَّائـب المحـترم الكومنـدور لامبسـن، يفكِّـرون بمثـل تفكـيره، فـلا شـكَّ أنَّ سياسـة الإمبراطوريَّـة البريطانيَّـة سـائرة في طريـق الانحطـاط!

الصَّداقـة التَّقليديَّة

تدعمها بريطانيـا العظمى بالمدافع الثَّقيلة

»نابلـس في ٢٠ تمّـوز سـنة ١٩٣٦ - هاجـم الثُّـوَّار مخيّـم الجنـود في سـهل بلاطـة، فأجـاب الجنـود بإطـلاق النَّـار مـن مدافعهـم الثَّقيلـة!«

قرأنـا الخـبر المذكـور أعـلاه، وسرعـان مـا خطـر في بالنـا قـول وزيـر المسـتعمرات في مجلـس العمـوم: «إنَّ هنالـك صداقـة تقليديَّـة بـين الإنجليـز والعـرب تعـرف الحكومـة البريطانيَّـة قيمتهـا، وترغـب رغبـة صادقـة في أن تحافـظ عليهـا».

ونعـت وزيـر المسـتعمرات الصَّداقـة الإنجليزيَّـة - العربيَّـة بالتَّقليديَّـة، دليـل عـلى أنَّهـا صداقـة قديمـة العهـد. أي قبـل أن يكـون انتـداب بريطانيـا عـلى فِلَسـطين، وقبـل أن يشـترك العـرب معهـا في الحـرب الكـبرى، وقبـل أن يعلنـوا ثورتهـم عـلى دولـة الخلافـة التـي عاشـوا في ظلالهـا أربعـة قـرون!

ويعلـم العـرب أنَّ بينهـم وبـين الإنجليـز عهـودًا قطعهـا السّـير هـنري مكماهـون سـنة ١٩١٥ باسـم حكومتـه، للمرحـوم الملـك حسـين زعيـم العـرب، وقائـد ثورتهـم الكـبرى، عهـود تعـترف فيهـا بريطانيـا العظمـى باسـتقلال البـلاد العربيَّـة، وفي جملتهـا فلسـطين.

وكـم يسـوء العـرب - ومـن ورائهـم المسـلمون - أن تكـون تصرُّفـات بريطانيا العظمـى نحوهـم، عـلى غـير مـا تدَّعيـه بلسـان وزيـر مسـتعمراتها المسـتر أورمسـبي غـور، وعـلى غـير مـا تنطـق بـه العهـود الصَّريحـة، وأن تكـون مكافأتهـا للعـرب، عـلى إخلاصهـم لهـا في الحـرب الكـبرى، تهويـد فلسـطينهم المقدَّسـة وتشريـد سـكَّانها!

ثمانية عشر عامًا، وبريطانيا العظمى تخادعنا، تخدِّرنا تارة بإرسال وفود منا إليها، وطورًا تضحك من ذقوننا بإرسال لجان تحقيق منها إلينا. كلّ هذه المدَّة وهي تعلِّلنا بالآمال الفارغة، وتروّج بيننا الاستعباد، تحت قناع الصَّداقة التَّقليديَّة.

إنَّ قولًا مثل هذا لم يعد بإمكان العرب تصديقه، وإنَّ صداقةً تقليديَّةً مشكوكًا فيها مثل هذه لا يطمئنُّ إليها العرب!

إنَّنا لا نثق بصداقة تُفرَض بقوَّة السِّلاح، بل نثق بصداقة تُبنى على أسس الحقّ والعدل والمساواة.

إنَّنا نطلب من بريطانيا حقًّا تؤيِّده: ١) المادة ٢٢ من عهد جمعيَّة الأمم. ويؤيِّده ٢) مبدأ تقرير المصير. وتؤيِّده: ٣) وعود الحلفاء وتصريحاتهم العلنيَّة زمن الحرب. وتؤيِّده ٤) العهود المقطوعة للملك حسين. وأخيرًا، تؤيِّده: ٥) رغبتنا المشروعة في الاستقلال.

كثيرًا ما كنَّا نسمع بأنَّ الحكومة القائمة في البلاد هي صديقة للعرب، وبخاصَّة الفلاحون منهم، ولكنَّ هذه الصَّداقة المزعومة، قد فضحتها التَّدابير الحاليَّة المبنيَّة على إخماد صوت الحق! وكيف يستطيع عربيّ بعد الآن، أن يصدّق بأنَّ السِّياسة الجائرة التي تنطبق عليه هي في مصلحته، بينما هو يراها تحرمه من أرضه، وتجعله غريبًا في وطنه؟!

هو لا يجد أمامه سياسة عادلة تحبِّبه بالحياة، بل يجد سياسة ظالمة تجرّه إلى التَّمرُّد على الحياة!

هو لا يعطي قروضًا يحسّن بها حاله، بل تُفرَض عليه غرامات ينوء بها عاتقه!

هو جائع لأنَّ مؤونته دُمِّرَت!

هـو مشرَّد لأنَّ بيته هُدِم!

هـو يائسٌ لأنَّ حقَّه ضاع!

هـو حزين؛ لأنَّه نُكِبَ بأفراد عائلته!

هو ناقم على الحياة كلِّها؛ لأنَّه جُرِّدَ من كلّ أسـباب الحياة!

تقـول الحكومـة إنَّ مـن واجبهـا المحافظـة عـلى هيبتهـا، ولكـنَّ المحافظـة عـلى هـذه الهيبـة لا تجعـل مـن أصحـاب البـلاد أعـداء، تطبـق عليهـم قوانـين الطـوارئ!

إنَّ هـذه المظـالم التـي تحـلّ بالعـرب لا تحفـظ هيبـة الإمبراطوريَّـة، وإنَّمـا الـذي يحفظهـا هـو إجابـة صـوت الحـقّ.

ليـس في قـول العـرب «نحـن مظلومـون» أيّ خطـر عـلى هيبـة الإمبراطوريَّـة، ولكـنَّ الخطـر عـلى هـذه الهيبـة أن يتحدَّاهـا وايزمـن بقولـه: «سـنبقى في فِلَسـطين سـواء أردتـم (أيّهـا البريطانيُّـون) أم أبيتهـم. يمكنكـم أن تعجلـوا أو تؤخِّـروا يـوم قدومنـا، والأفضـل لكـم أن تسـاعدونا، وإلَّا فـإنَّ مقدرتنـا التَّعميريَّـة تنقلـب إلى مقـدرة تدميريَّـة، تـضرب لهـا الدّنيـا بأجمعهـا».

يا بريطانيا!

إنَّ العـرب يريـدون صداقـة حقيقيَّـة، مبنيَّـة أسسـها عـلى الصَّراحـة التَّامَّـة في القـول والعمـل!

إنَّ الصَّداقـة التـي تضـنّ علينـا بأبسـط مطالـب الحيـاة ليسـت بالصَّداقـة الحقَّـة!

إنَّ الصَّداقـة التـي تسـمح بظلـم مليـون نفـس عربيَّـة، ليسـت بالصَّداقـة المرغـوب فيهـا!

إنَّ الصَّداقـة التـي توطَّـد بالمدافـع الثَّقيلـة، هـي الصَّداقـة المقـضيّ عليهـا بالفشــل!

إنَّ الصَّداقـة التـي بنيتهـا - يـا بريطانيـا - في مئـة سـنة قـد قضـت عليهـا سياسـة عشريـن سـنة، ويُخـشى ألّا يفيـد معهـا عطـف ألـف سـنة!

الذَّنب الذي لا يُغتَفَر!

«ومن المسلّم به أنَّ عرب فِلَسطين يصلحون لحكم أنفسهم بأنفسهم كعرب العراق وسوريا، ولكن ليس بوسعنا أن نجيب طلب العرب للحكم الذَّاتيّ؛ لأنَّه لا يضمن إنشاء الوطن القوميّ اليهودي! ...»

تقرير اللجنة الملكية»

يُحكى أنَّ جمَّالًا، عندما قرب يوم وفاته، ذهب إلى جمله يسأله السَّماح عن ذنوب اقترفها معه؛ حتَّى يقابل وجه ربِّه راضيًا مرضيًّا!

فأجاب الجمل: «أستطيع أن أغفر لك كلّ ذنب اقترفته معي، من ضرب وإهانة وثقل حمل، ولكنَّ ذنبًا واحدًا لا أستطيع أن أغفره لك، وهذا الذَّنب أن تقودني وعشرين جملًا مثلي، بذنب حمار!»

والجمل بطبيعته وكبر جسمه يسلك طرقًا غير الطُّرق التي يسلكها الحمار، وربطه بذنب حمار صغير، عدا عن أنَّه يعدّ تحقيرًا له، فهو يضطره إلى أن يسلك طرقًا شاقَّة، لا عهد له بها لولا الحمار!

ذكَّرني هذا المثل الحكيم بصكّ الانتداب على فِلَسطين؛ لأنَّه يمتاز عن صكوك الانتداب كلّها بالذَّنب الملحق به، وهذا الذَّنب هو ما يدعوه العرب «وعد بلفور المشؤوم»، وكلَّما حاول عرب فِلَسطين التَّخلُّص من الانتداب، كما تخلَّص منه عرب العراق وسوريا، قامت بريطانيا العظمى تلوّح بهذا الذَّنب؛ لتصدّ عن الصَّكّ المذكور هجمات المهاجمين!

ومثل عرب فلسطين مع الإنجليز – من هذه الجهة – كمثل الجمّال وجمله، فهم يستطيعون أن يغفروا لبريطانيا العظمى جميع ذنوبها

التـي أذنبـت بهـا إليهـم، إلَّا ذنبًـا واحـدًا لا يسـتطيعون أن يغفـروه لهـا طـول حياتهـم، وهـذا الذَّنـب أن تجعلهـم وبلادهـم ومجدهـم وتاريخهـم وحضارتهـم كلّهـا مربوطـة بذنـب الوطـن القومـيّ اليهـوديّ، يقودهـم في طـرق ملتويـة، وعـرة المسـالك، مجهولـة العاقلـة، وأن تجعـل مسـتقبلهم في وطنهـم موقوفًـا عـلى كلمـة ينطـق بهـا وايزمـن في لنـدن، أو ديزنجـوف في تـل أبيـب!

حقيقـةً، يجـب ألَّا تغـرب عـن فِلَسـطين أبـدًا، وهـي أنَّ الانتـداب مـا دام قائمًـا، فـلا أمـل لهـم في الاسـتقلال، أو في قيـام الحكـم الـذَّاتيّ في بلادهـم؛ لأنَّ الوطـن القومـيّ اليهـوديّ، أو بالأصحّ ذنـب صكّ الانتـداب، يحـول دون تحقيـق ذلـك، فعـلى عـرب فِلَسـطين أن يقضـوا عـلى الانتـداب أوّلًا، ومتـى قضـوا عليـه قضـوا عـلى الذَّنـب الملحـق بـه!

واللـه لا يحبّ القوم الظَّالمين!

السِّياسة ذات الوجهين

نعم ولا في آن واحد!

»ذو وجهين، ذو لسانين لا ينجح على الأرض«

- كتاب مقدّس -

لم تكن السِّياسة المتَّبعة في فِلَسطين، منذ البدء، قائمة على أساس الصِّدق والصَّراحة، وقد تطوَّرت هذه السِّياسة تطوُّرًا معكوسًا خلال عشرين سنة، حتَّى أصبحت مجموعة متناقضات يحوطها الغموض والإبهام من كلّ نواحيها!

إنَّ بريطانيا العظمى لم تكن صريحة حين وضعت صيغة تصريح بلفور بإنشاء الوطن القوميّ اليهوديّ في فِلَسطين، كما أنَّها لم تكن صريحة في بياناتها وتصريحاتها التي فاه وما يزال يفوه بها المسؤولون؛ تفسيرًا لمعنى هذا الوطن.

والغموض الذي لازم تلك السِّياسة حتَّى الآن، هو الذي أدَّى بالعرب إلى إساءة الظنّ، وكان سببًا فيما تبلوه فلسطين من الاضطراب وعدم الاستقرار.

وقد كان على بريطانيا العظمى - بعد مضيّ عشرين سنةً على انتدابها على فلسطين - أن تعتبر لما ولدته سياستها الغامضة من نتائج مريرة، كانت خسائر فادحة في الأرواح والأموال والممتلكات!

وكفى دليلًا على غموض تلك السِّياسة القائمة على أساس تصريح بلفور، أن يقول بلفور نفسه: «إنَّ عبارات وعده وُضِعَت غامضةً عمدًا؛

ليتسنَّى لليهود أن يعملوا في سبيل مستقبلهم كما يريدون».

ثمَّ يجيء المستر تشرتشل، وزير المستعمرات البريطانيَّة في سنة ١٩٢٢، ببيان تفسيريّ لوعد بلفور، يقول فيه: «إنَّ مخاوف العرب تُبنى على تفاسيرَ مبالغٍ فيها لمعنى وعد بلفور، وقد ظهرت تصريحات غير رسميَّة بأنَّ الغاية من ذلك جعل فِلَسطين يهوديَّة بجملتها، غير أنَّ حكومة جلالة الملك تنظر إلى هذه الآمال كغير قابلة للتَّطبيق».

وبعد أربع عشرة سنةً، تأتي اللَّجنة الملكيَّة فتقول في تقريرها عن بيان المستر تشرتشل التَّفسيريّ ما يلي: «إنَّ هذا التَّفسير للوطن القوميّ يحول دون إنشاء دولة يهوديَّة. غير أنَّه وإن كانت عبارته قد وُضِعَت في قالب يرمي إلى تخفيف خصومة العرب للوطن القوميّ بقدر الاستطاعة، فليس فيه ما يمنع من إنشاء دولة يهوديَّة!».

ثمَّ يأتي المستر مالكولم مكدونلد، وزير المستعمرات البريطانيَّة الحالي، فيقول جوابًا عن سؤال: «إنَّ الوعد الوحيد الذي أعطي لليهود هو تصريح بلفور، وهذا التَّصريح ليس فيه ما يمنع أو يوافق على إنشاء مملكة يهوديَّة في فِلَسطين».

ولعلَّ القرَّاء يستغربون – ممَّا تقدَّم – كيف يكون الجواب نعم ولا في آن واحد، ولكن هذه هي حقيقة السِّياسة التي اتَّبعتها وما تزال تتَّبعها الحكومة المنتدبة في فِلَسطين. فلا العرب اطمأنُّوا لهذه السِّياسة، ولا اليهود قطعوا الأمل منها، ومن هاتين الحالتين نشأت حالة ثالثة هي حالة عدم الاستقرار!

فلا غرابة، إذن، أن تفشل سياسة مثل هذه، سداها الغموض ولحمتها الإبهام؛ لأنَّ الكتاب المقدَّس سبق وقال: «ذو وجهين، ذو لسانين، لا ينجح على الأرض!»

كلُّ الـدُّروب تـؤدِّي إلى الطَّاحون

«إنَّ فِلَسـطين لا تتَّسـع لجميـع اليهـود في العـالم، ولكـن إذا أقيمـت مملكـة يهوديَّـة في فِلَسـطين، أصبـح مـن السَّـهل تحسـين موقـف هـذه المملكـة بفضـل المفاوضـات، والتَّقـرُّب مـن الممالـك القريبـة، ثـمَّ التَّوسُّـع في حدودهـا؛ حتَّـى تشـمل باقـي فِلَسـطين كلّـه ...»

من خطاب للسير لوري هاموند

ظلَّلـت سياسـة المكـر تتمـدَّد تـارةً، وطـورًا تتقلَّـص! وظـلَّ عمـل الانتـداب مسـتمرًّا تحـت سـتار التَّمديـن، في التَّمهيـد لإنشـاء مملكـة يهوديَّـة في فِلَسـطين!

وبالرّغـم مـن هـذا وذاك، ظـلَّ العـرب يشـكّون في سـوء اتِّجـاه تلـك السِّياسـة، حتَّـى بـرزت للعيـان بوجـه سـافر، ظـلَّ مسـتورًا وراء القنـاع مـدَّة عشريـن سـنةً!

وقـد كان لتقريـر اللَّجنـة الملكيَّـة عقـب ثـورة سـنة ١٩٣٦ الفضـل الأكـبر في تمزيـق هـذا القنـاع عـن مؤامـرة سياسـيَّة دنيئـة، حيكـت خيوطهـا يـوم حيكـت خيـوط الانتـداب!

ولم يقـف الأمـر عنـد هـذا الحـدّ، بـل أخـذ السـير لـوري هامونـد يدعـو إلى إقامـة مملكـة يهوديَّـة في فِلَسـطين كلّهـا، وهـو أحـد أعضـاء تلـك اللَّجنـة المحترمـة التـي جـاءت إلى فِلَسـطين للتَّحقيـق (بنزاهـة) في ظلامـات العـرب!

فهـذا العضـو المحـترم، الـذي يعيـش في القـرن العشريـن، قـرب «حـقّ الشُّـعوب في تقريـر مصائرهـا» يأسـف - في خطابـه - شـديد الأسـف لعـدم اسـتيلاء الحكومـة عـلى جميـع أراضي فِلَسـطين منـذ فجـر الانتـداب، وتطويبهـا باسـم الجمعيَّـة الصّهيونيَّـة! وهـو يأسـف الأسـفَ كلَّـه للتَّأخُّـر

عـن إفهـام العـرب أنَّ الحكومـة تأمـر فتُطـاع! وهـو يأسـف الأسـفَ كلَّـه للجمـع بـين اليهـود النَّشـيطين المتمدِّنـين النَّابهـين، والعـرب المتأخِّريـن الخاضعـين للمرابـين المسـتعبدين للأفنديَّـة!

وهـو يأسـف الأسـف كلَّـه لأنَّ اللَّجنـة الملكيَّـة لم تـوصِ بطـرد العـرب مـن المناطـق التـي تدخـل ضمـن المملكـة اليهوديَّـة! وهـو يأسـف الأسـف كلَّـه ولا يسـتطيع أن يتصـوَّر، وتسـتولي عليـه الدَّهشـة، لتدخُّـل ملـوك العـرب وأمرائهـم (الغربـاء عـن العـرب والعروبـة) في قضيَّـة فِلَسـطين!

وهـذا الأسـف بأنواعـه كلّهـا، الـذي يتألَّـم منـه العضـو المحـترم؛ هـو لعـدم تمكُّـن الحكومـة المنتدبـة في مـدَّة عشريـن سـنة مـن خلـق المملكـة اليهوديَّـة التـي - كـما تحـاول السِّياسـة الأنجلوصهيونيَّـة - إذا لم يتـمّ خلقهـا بالانتـداب، فبالتَّقسـيم! وإذا لم يتـمّ بالتَّقسـيم، فبنظـام الكنتونـات! وإذا لم يتـمّ بنظـام الكنتونـات، فبضـمّ فلسـطين إلى شرق الأردن! وإذا لم يتـمّ يضمّهـا إلى شرق الأردن، فبجعلهـا مسـتعمرةً تابعـةً للتَّـاج!

وكلُّ الـدُّروبِ تؤدِّي إلى الطَّاحون!

اليهوديَّـة التَّائهة

مقدّمة

قلنـا إنَّ وعـد بلفـور سـند مزيَّـف، أعطتـه بريطانيـا العظمـى لليهـود عـلى حسـاب العـرب، وبـدون معرفتهـم، وتآمـر المجلـس الأعـلى لحلفـاء الحـرب الكـبرى - ومنـه بريطانيـا - عـلى دمـج هـذا الوعـد في صـكّ الانتـداب، فـكان ذنبًـا لـه، ثـمَّ جـاءت عصبـة الأمـم وأقـرَّت هـذا الصـكّ مـع ذنبـه!

وقـد ظـنَّ اليهـود بهـذه العمليَّـة الملفَّقـة أنَّ وعـد بلفـور قـد اكتسـب الصِّفـة القانونيَّـة، والواقـع أنَّ الوعـد فاسـد مـن أساسـه؛ لأنَّ العـرب لم يستشـاروا في أمـره، ولم يكـن لهـم مـن يمثِّلهـم في عصبـة الأمـم التـي أقرَّتـه!

مائدة مستديرة

فطـن اليهـود لهـذه الحقيقـة، بعـد مـا بلـوا مـن العـرب مـا أقـضَّ مضاجعهـم، وجعلهـم يعتقـدون أنَّ الوعـد الـذي في أيديهـم وثيقـة لا قيمـة لهـا، ولا يمكـن أن تصطبـغ بالصَّبغـة القانونيَّـة الحقَّـة، إلَّا إذا وافـق العـرب عليهـا؛ لأنَّ ليـس مـن حـقّ بريطانيـا وحلفائهـا، ولا مـن حـقّ الـدُّول الاثنتـين والخمسـين التـي تمثِّلهـا عصبـة الأمـم أن يتصرَّفـوا بملـك هـو ليـس لهـم، وأن يهبـوه لقمـة سـائغة لأمَّـة مـشرَّدة؛ ولذلـك حاولـوا أن يتوصَّلـوا إلى أخـذ موافقـة العـرب عـلى الوثيقـة المزيَّفـة التـي في أيديهـم، باقـتراح مؤتمـر مائـدة مسـتديرة، يجتمـع حولهـا العـرب واليهـود؛ حتَّـى يقتنـص الأخـيرون مـن الأولـين حجَّـة تثبـت حقَّهـم في فلسـطين، ولكـن، أنَّى للغريـب أن يجتمـع بصاحـب الـدَّار! وأنَّى للدَّخيـل أن يكـون والأصيـل في درجـة مـن الحـق متسـاوية!

طبيعة اليهوديّ استغلاليَّة

قام الأدون وايزمن زعيم الصّهيونيَّة بخدمة علميَّة لبريطانيا خلال الحرب الكبرى، وكان واجبه كإنجليزيّ ألَّا يطلب أجرًا على ذلك، ولكنَّه بدلًا من أن يقوم بالواجب لأجل الواجب؛ طلب ثمنًا له فِلَسطين لتكون وطنًا لقومه اليهود، وهو يعلم حقَّ العلم بأنَّ هذا الوطن له أصحابه، وأنَّ تأسيس الوطن القوميّ فيه، لا يمكن أن يتحقَّق إلَّا بمحو العرب منه، والقضاء عليهم وعلى ذراريهم من بعدهم. هو لم يتأثَّر بعاطفة إنسانيَّة حينما طلب من بريطانيا مثل هذا الطَّلب؛ لأنَّه يهوديّ، وطبيعة اليهوديّ استغلاليَّة في كلّ زمان ومكان!

وكذلك البارون روتشلد فتح خزائنه؛ لا ليخدم البشريَّة كإنسان؛ بل ليختلس من العرب وطنهم ويجعله وطنًا لقومه اليهود. إنَّه لم يخفق قلبه بعاطفة إنسانيَّة حينما فكَّر في ذلك؛ لأنَّه يهوديّ، وطبيعة اليهوديّ استغلاليَّة في كلّ زمان ومكان!

أمَّة غير نبيلة

وأمَّة يتألَّف كيانها من خليط من الأجناس واللُّغات، تعيش في عزلة دائمة عن العالم كلّه، بالرّغم من وجودهم بين أممه وشعوبه، لا يجمعها وطن، ولا يرتبط أفرادها بلغة واحدة وتقاليد واحدة، ولا تعرف من تاريخها إلَّا الذلّ والاضطهاد والتَّشرُّد، لا ترجو منها أن تكون نبيلة؛ لأنَّها ليس لها من مقوِّمات الأمم ما يجعلها أن تكون عضوًا نافعًا في جسم البشريَّة

مصلحة لا استخذاء

العرب واليهود في كِفَّتَي ميزان!

«سنبقى في فِلَسطين سواء أردتم أيّها البريطانيُّون أم أبيتم. يمكنكم أن تعجِّلوا أو تؤخِّروا يوم قدومنا، والأفضل لكم أن تساعدونا، وإلَّا فإنَّ مقدرتنا التَّعميريَّة ستنقلب إلى مقدرة تدميريَّة، تضطرب لها الدّنيا بأجمعها»

- الدكتور حايم وايزمن -

«اليهود مسيطرون على بريطانيا العظمى» و«بريطانيا العظمى تستخذي لليهود» و«سياسة بريطانيا العظمى تسير بوحي اليهوديَّة العالميَّة!».

نغمات ثلاث أكثرت الصُّحف العربيَّة من ترديدها في معرض بحثها قضيَّة فلسطين، فهل ما تقوله هذه الصُّحف صحيح؟

وكيف يستطيع المرء أن يصدِّق أنَّ دولة من الدُّول العظمى مثل بريطانيا، لها أساطيلها وطيَّاراتها ودبَّاباتها، وتحكم الملايين من البشر في إمبراطوريَّتها الواسعة الأطراف، تتضاءل عظمتها أمام شرذمة من اليهود، وتسخر نفسها لخدمة بضعة ملايين من أبناء صهيون؟!

إنَّ بريطانيا أعظم من أن تُقاد برأي تلك الشّرذمة، وأدهى من أن تسير في سياستها بوحي خارجيّ مهما كان نوعه، إلَّا إذا كان ذلك الوحي في مصلحتها، وما قوَّة اليهوديَّة العالميَّة إلَّا وهم سيطر على النَّاس حينًا من الزَّمن بنتيجة دعايات واسعة، حتَّى جاء هتلر ونضحها وأثبت للعالم أنَّها مبنيَّة على أساليب منظَّمة من الغشّ والخداع!

إنَّ أمَّـة مسـتضعفة كاليهـود، تهـدِّد المدنيَّـة بالخـراب والدَّمـار، لهـي الأمَّـة التـي يجـب ألَّا يخشـاها أحـد، ولا سـيَّما بعـد أن كشـف هتلـر سـترها، وأظهرهـا للنَّـاس عاريـة مفضوحـة، وإنَّ الـذي يكـثر مـن التَّهديـد والوعيـد، هـو نفسـه الـذي لا يسـتطيع أن يفعـل شـيئًا، كـما أنَّ الـذي يكـثر مـن خلـف الأيمـان المغلّظـة لـكي يصدِّقـه النَّـاس، هـو نفسـه الـذي يشـعر في قـرارة نفسـه أنَّـه أحنـث بيمينـه مـن جميـع النَّـاس!

والحقيقـة التـي لا تقبـل الجـدل، أنَّ مصلحـة بريطانيـا هـي التـي تسـيطر عليهـا، ومصلحتهـا وحدهـا هـي التـي جعلـت مـن سياسـاتها في فِلَسـطين سياسـة أنجلـو - صهيونيَّـة، وهـي - لـو شـاءت - لجعـت مـن تصريـح بلفـور قصاصـة ورق لا قيمـة لهـا!

فهـل فكَّـرت تلـك الصُّحـف في أن تظهـر للنَّـاس أن بريطانيـا العظمـى هـي التـي تتحكَّـم باليهـود، لا هـم الذيـن يتحكَّمـون بهـا؟ وأنَّهـا هـي التـي تسـيِّرهم في اتِّجـاه يوافـق مصلحتهـا، وتقبـض عـلى خناقهـم بيـد قويَّـة لا يسـتطيعون مقاومتهـا أو الإفـلات منهـا؟ وهـل يعلـم اليهـود أنَّ الوعـد الـذي أعطتهـم إيَّـاه بريطانيـا العظمـى بإنشـاء وطنهـم القوميّ في فِلَسـطين، قـد زعـزع كيانهـم المسـتقرّ في أوروبـا، وأحـرج مركزهـم في فِلَسـطين؟

إنَّهـم يعلمـون ذلـك ولا شـكّ، ويقـرّون - ولـو همسًـا - بـأنَّ مقدّراتهـم قـد أصبحـت في يـد بريطانيـا العظمـى، تتصرَّف بهـا كيـف تشـاء، وأنَّهـم ليسـوا بـأوَّل أمَّـة اسـتغلَّت هـذا السَّـبيل! إنَّهـم يشـعرون بخطـر موقفهـم الحـاضر ويتمنّـون النَّجـاة منـه، ولكـن أنَّى لهـم ذلـك ومصلحـة بريطانيـا العظمـى لم تنتـهِ بعـد!

ولـو فحصـت قلـوب اليهـود في الصَّميـم، لوجدتهـم يعترفـون بخطئهـم هـذا، ولكنَّهـم لا يجـسرون عـلى التَّفـوُّه بـه؛ لأنَّ مجـرَّد الإشـارة إليـه يفقدهـم آخـر عطـف بقـي لهـم، وهـو عطـف بريطانيـا، فتكـون الضّلالـة الأخـيرة عليهـم شرًّا مـن الأولى!

هـذا مـن النَّاحيـة الواحـدة، أمَّـا مـن النَّاحيـة الأخـرى، فالـذي يجـب عـلى العـرب والمسـلمين ألَّا يجعلـوا للوهـم بقـوَّة اليهوديَّـة العالميَّـة سـبيلًا إلى قلوبهـم، وأن يثبتـوا – وهـم فاعلـون – بـأنَّ مصلحـة الإمبراطوريَّـة البريطانيَّـة هـي في التَّقـرُّب إليهـم، وطلـب ودّهـم، حتَّـى إذا مـا رجحـت كِفَّتهـم عـلى كِفَّـة اليهـود، فسرعـان مـا تـضرب بريطانيـا العظمـى بسياسـتها الصّهيونيَّـة عـرض الحائـط، وتتَّخـذ سياسـة جديـدة، تتَّجـه في سـيرها نحـو خدمـة العـرب والإسـلام.

أمـس واليوم

لا يُلـدَغ المؤمن من جحر واحد مرَّتين!

«مـا مـن عمـل نقـوم بـه وحدنـا أو عـلى مسـؤوليَّتنا في فِلَسـطين، يمكـن أن يجلـب لنـا أو لغيرنـا سـلامًا بـشرف. لقـد أخطأنـا خطـأ فاحشًـا في حـقّ سـوريا عندمـا اقتسـمناها نحـن والفرنسـيون غـير مراعـين المبـدأ القومـيّ بـل الـضَّرورات السياسـيَّة عـام ١٩١٦»

السـير أرنولد ويلسـون

مـن أعضاء مجلس العموم البريطاني

في ٨ نوفمـبر سـنة ١٩١٨، أذاعـت حكومتـا فرنسـا وإنجلـترا بيانًـا عـلى سـكَّان بـلاد العـرب، اسـتُهِلَّ بالعبـارة التَّاليـة: «إنَّ السَّـبب الـذي لأجلـه حاربـت فرنسـا وإنجلـترا في الـشَّرق، هـو رغبتهـما في تحريـر شـعوبه مـن ظلـم الأتـراك واسـتعبادهم».

وفي ٢٠ مايـو سـنة ١٩٣٨، نـشرت الصُّحـف الفرنسـيَّة والإنجليزيَّـة مـا معنـاه: «إنَّ العـرب أثبتـوا عجـزًا سياسـيًّا في أنفسـهم، ولمَّـا كانـت إنجلـترا وفرنسـا لا يمكنهـما نفـض يديهـما مـن البحـر الأبيـض المتوسِّـط؛ لذلـك يجـب أن تعلِّقـا أهميَّـة كبـيرة عـلى صداقـة الأتـراك[1]»

هـذا مـا جـرى! أي بعـد عشريـن سـنةً، يـدور الزَّمـن دورتـه، وإذا بالعـرب ظالمـين، والـتّرك مظلومـين، وإذا بالعـرب أعـداء والـتّرك أصدقـاء!

هـذه هـي السِّياسـة المرتكـزة عـلى المصلحـة في جميـع أدوار التَّاريـخ: تجعـل مـن الحـقّ باطـلًا ومـن الباطـل حقًّـا! تسـتخرج مـن الظُّلـم عـدلًا ومـن العـدل ظلـمًا! تتَّخـذ مـن العـدوّ صديقًـا، ومـن الصَّديـق عـدوًّا!

١ قيل هذا تمهيدًا لضمّ لواء الإسكندرونة إلى تركيا

دعانا إلى هذه المقدّمة الوجيزة ما ألحقت تلك السِّياسة بالعرب من نكد، وما أصاب بلادهم من تجزئه، فقد ظلّ العرب عشرين سنةً، والسِّياسة تتقاذفهم، وتعبث بمقدّراتهم، تارةً يطمئنُّون إليها، وطورًا لا تطمئنّ إليهم، وهكذا دواليك، وبين هذا وذاك كنَّا نسير إلى حيث لا نعلم أين المصير!

وليس أمامنا من الأدلَّة لإثبات ما تبيته لنا السِّياسة من شرور، وما تعده لنا من مصائر، سوى عرض حوادث عشرين سنة خلت، ففيها عبرة لقوم يعقلون!

فمن منَّا ما يزال يثق بعدالة عصبة الأمم، فدونه الحبشة! ومن منَّا ما يزال يثق بإنصاف لجنة الانتدابات، فإنصافها بقيَّة شراب في الكأس عفَّ عنه الشَّاربون! ومن منَّا ما يزال يثق بأمانة المنتدب، فدونه الإسكندرونة في الشّمال، وفلسطين في الجنوب! ومن منَّا ما يزال يثق «بالصَّداقة التَّقليديَّة» فلينظر إلى ما قد هيَّأته لنا هذه الصَّداقة من مصير!

تلك حقائق مجرَّدة لا يستطيع إنكارها إلَّا كل مكابر مخاتل، أو كلّ من كان على شاكلة توما[٢]، فلا يصدِّق إلَّا بعد أن تضع السِّياسة – بعد التَّجزئة والضمّ والسَّلخ والفصل – خريطة جديدة لسوريا وفلسطين، تقرّها لجنة الانتدابات، ويصادق عليها مجلس عصبة الأمم، وحينئذ تبهره ألوانها المختلفة، فيؤمن!

المؤامرة مقرَّرة، وإن اختلف المتآمرون في تحديد زمن التَّنفيذ، فإذا صحَّ هذا – وهو صحيح – فما عسى يكون موقف العرب بعد الآن؟

٢ هو توما أحد تلامذة المسيح الاثني عشر، وإليه يُنسَب هذا القول: «إن لم أبصر في يديه أثر المسامير، وأضع اصبعي في أثر المسامير، وأضع يدي في جنبه لا أومن» يوحنا ص٢٠ عدد ٢٥.

هـل يفتِّشـون عـن طريـق للخـلاص؟ إنَّ الوقـت قـد أصبـح أضيـق مـن أن يسـتوعب شـيئًا أكـثر مـن الاحتـمالات والانتظـار، وفي تاريـخ الجزيـرة متَّسـع لمـن يخـطّ في صحيفتـه كلمـة «المنقـذ الأعظـم».

في فترة الانتظار

«نحن كلّنا لفلسطين، وليس لفلسطين غير العراق، إنَّ العمل للوحدة العربيَّة هي السِّياسة التي وضعها جلالة الفقيد العظيم، ونحن نحرص على هذه السِّياسة، لا نحيد عنها، ولا نفرِّط بها»

غازي الأوَّل ملك العراق

أمَّة وقضيَّة

اتَّفقت كلمة الأمَّة على مواصلة الجهاد في سبيل فلسطين حتَّى النِّهاية، وأصبح الكلّ بانتظار ما ستتمخَّض به الأيَّام من أحداث!

وفي هذه الفترة من الزَّمن، نحن نتحدَّث إلى القرّاء بحديث أمَّة وقضيَّتها، أمَّا الأمَّة فهي العرب، وأمَّا القضيَّة فهي فِلَسطين.

جاءت الصّهيونيَّة تغتصب منَّا البلاد بالباطل، فقاومناها بالحقّ الصَّريح والرَّغبة الصَّادقة، والقلب العامر بالإيمان! لم يتسرَّب إليها وَهَن، ولم يفت في عضدنا ظلم أو اضطِّهاد! كان دستورنا في جهادنا أنَّنا أصحاب حقّ، ويجب أن نحافظ بقوَّة على هذا الحقّ! قد كلَّفنا هذا الجهاد غاليًا، ولكنَّنا لسنا عليه بنادمين! كفانا منه أن شقّ أمامنا طريق الحياة الحرَّة، وجعلنا مثالًا للأمم يُحتَذَى.

شجاعة وبطولة

وفي هذه الفترة من الزَّمن، نتحدَّث إلى القرَّاء بحديث الشَّجاعة والبطولة؛ الشَّجاعة التي أبداها ابن المدينة في احتمال الأذى، والبطولة التي أحاطت رأس ابن القرية بهالة القداسة والمجد.

قـد أظهرنـا مـن المعجـزات مـا أدهـش العـالم، ومـن الثَّبـات فـوق مـا كان ينتظـره منَّـا العـالم. كلّنـا كان جنديًّـا، وكلّنـا اشـترك في المعركـة.

وهـل أعظـم عنـد الجنـديّ مـن أن يدخـل المعركـة مؤمنًـا ويخـرج منهـا ظافـرًا منتـصرًا؟!

لم تهمَّنـا خسـارة الأمـوال، ولم يصعـب علينـا بـذل الأرواح. مـا فـتّ في عضدنـا زمـن الجهـاد وقـد طـال.

لقـد ضحَّينـا كثـيرًا، ونحـن الآن بانتظـار ثمـن التَّضحيـة. وأمَّـة ثابتـة المبـدأ، موحَّـدة الغايـة، معتصمـة بالصَّبر، كريمـة في التَّضحيـة، لهـا أن ترقـب فـوزًا، ولهـا أن تحظـى بنـصر.

نحن مؤمنون بحقّنا، والمؤمن بحقِّه لا يشـكّ أبدًا بحسـن النَّتائج!

ابـدأوا ... وعلينا الباقي

وفي هـذه الفـترة مـن الزَّمـن، نتحـدَّث إلى القـرّاء بحديـث العـراق وأهـل العـراق. هـذه الأمَّـة التـي أنشـأت الحيـاة، وبنـت كـما بنـى الأجـداد.

زارنـا، قبـل الثَّـورة وفـد مـن نوَّابهـا الكـرام، وعـلى رأسـهم البطـل سـعيد بـك ثابـت. كانـت زياتهـم لنـا في وقـت كاد يـدبّ اليـأس إلى قلوبنـا، وكادت تصبـح قضيَّـة البـلاد في خـبر كان!

كنَّـا أمَّـة مفكّكـة، وأحزابًـا متطاحنـة، والعـدوّ يسـتغل تطاحـن هـذه، وتفـكُّك تلـك.

في يافـا، وفي جمعيَّـة الشُّـبَّان المسـلمين، وقـف أحـد الخطبـاء يحـزّ في نفسـه الألم، ويـذرف الدَّمـع السَّـخين عـلى فِلَسـطين.

قـال للنُّـوَّاب الكـرام: «أنقذونـا يـا قـوم، فقـد كاد اليـأس يقتلنـا، وتذهـب ريحنـا!».

فأجـاب سـعيد بـك ثابـت وقـال: «لا تنتظـروا أن نأتيَكـم بتجريـدة، ابـدؤوا أنتـم وعلينـا الباقـي».

كلمـة ظلّ صداها يـرنّ في الآذان، حتَّى بدأنا، وجاؤوا اليوم يكملون!

الثَّبات للنِّهاية

وفي هـذه الفـترة مـن الزَّمـن، نتحـدَّث إلى القـرّاء بحديـث الثَّبـات في الموقـف، ومواصلـة الجهـاد إلى النِّهاية.

هنالـك شـائعات بقـرب انفـراج الأزمـة، هـي سـابقة لأوانهـا، فـلا تصدّقوهـا، وكونـوا منهـا عـلى حـذر!

قـد تكـون هـذه الشَّـائعات صـادرة مـن أفـراد عـن حسـن نيَّـة، ولكنَّهـا عـلى كلّ حـال مجلبـة لتثبيـط العزائـم وتخديـر الأعصـاب.

إنَّنا قد بلونا من غدر السّياسـة ومكرها الشَّيء الكثير.

والعاقـل مـن لا يؤمـن بـشيء لم تـره عينـاه، ولم تسـمع بـه أذنـاه، ولم يلمسـه بيديه!

مـن المهـمّ أن تدخـل قضيّتنـا في دور المفاوضـة، ولكـنَّ الأعـمّ أن تسـفر عـن تحقيـق مطالـب الأمَّـة.

الصَّحائف السُّـود

في تاريخ الاسـتعمار الأجنبيّ

«أعتقـد بأنّنـا وقعنـا في ورطـة فظيعـة جـدًّا، وكثـيرون مثـلي يـودّون اقـتراب اليـوم الـذي نتمكَّـن فيـه مـن الخـلاص مـن هـذه الورطـة. إذ أيَّـة فائـدة لنـا مـن قلـب بـلاد عربيَّـة وجعلهـا بـلادًا يهوديَّـة، ونحـن في حشـدنا اليهـودَ في فلسـطين قـد ارتكبنـا عمـلًا جنونيًّـا يشـبه أعـمال الـدّون كيشـوت!»

«روبرتسـون

العرب وحلفاؤهم

لا يسـتطيع مـؤرِّخ تاريـخ الحـرب العامَّـة، إلَّا أن يذكـر بالإعجـاب، المسـاعدةَ العسـكريَّة الكـبرى التـي قدَّمهـا العـرب للحلفـاء، وبخاصَّـة بريطانيـا، وإلَّا أن يسـجِّل مـا فعلـه الحلفـاء بالعـرب مـن نفـض العهـود والحنـث بالوعـود!

كان جيـش بريطانيـا في حملتـه عـلى فلسـطين يتقـدَّم في شـبه جزيـرة سـيناء، يحوطـه الأمـان والاطمئنـان، وكان الجيـش العـربيّ يقـف موقـف العـداء مـن الـتّرك في جزيـرة العـرب، وفي سـاحة حربيَّـة طولهـا ألـف كيلومـتر!

ولـولا انتقـاض العـرب عـلى الـتّرك، وانضمامهـم لبريطانيـا العظمـى؛ لمـا تـمّ للجيـش البريطـانيّ إحـراز مـا أحـرزه مـن نـصر بهـذه السُّرعـة العجيبـة، التـي أدَّت إلى احتـلال فلسـطين، بينـما العيـش العـربيّ أفسـد عـلى الـتّرك نحـو أربعـين ألـف مقاتـل بأسـلحتهم الكاملـة، كان في الإمـكان حشـدها في سـاحة فلسـطين، أمـام الإنجليـز ومنعهـم مـن التَّقـدُّم.

كذب وتضليل

وفي ٨ نوفمبر سنة ١٩١٨، أذاع الحلفاء بعد احتلالهم بلاد العرب التَّصريح الآتي: «إنَّ السَّبب الذي من أجله حاربت فرنسا وإنجلترا في الشَّرق، تلك الحرب التي أهاجتها مطامع الألمان؛ إنَّما هو لتحرير الشُّعوب التي رزحت أجيالًا تحت مظالم التُّرك تحريرًا تامًّا، وإقامة حكومات وإدارات وطنيَّة تستمدّ سلطتها من اختيار الأهالي الوطنيِّين لها اختيارًا حرًّا، ولقد أجمعت فرنسا وإنجلترا على أن تؤيّد ذلك بأن تشجّعا وتعينا على إقامة هذه الحكومات والإدارات الوطنيَّة في سورية والعراق. وليس من غرض لفرنسا وإنجلترا أن تنزلا أهالي هذه المناطق على الحكم الذي توليانه. ولكن همهما الوحيد أن يتحقَّق بمعونتهما ومساعدتهما المفيدة، عمل هذه الحكومات والإدارات التي يختارها الأهلون من أنفسهم. وأن تضمنا لهم عدلًا منزّها يساوي بين الجميع ويسهل عليهم ترقية الأمور الاقتصاديَّة في البلاد بإحياء مواهب الأهالي الوطنيِّين وتشجيعهم على نشر التَّعليم، ووضع حدّ للخلاف القديم الذي قضت به السِّياسة التّركيَّة. هذه هي الأغراض التي ترمي إليها الحكومتان المتحالفتان في هذه الأقطار المحرّرة».

مؤامرة دنيئة

هذا ما تمّ بين بريطانيا وفرنسا في الظَّاهر. أمَّا إذا شئت أيّها القارئ أن تطَّلع على ما تمّ بينهما في الباطن، فاقرأ ما يلي:

قال بريطانيا: «إنَّنا إذا قمنا بتنفيذ هذا التَّصريح، أصبح هذا الشَّعب مصدر خطر لسياستنا في الشَّرق الأدنى، فما هي الواسطة لوقف هذا الخطر؟

فأجابت فرنسا: «نقسم بلاده بيننا ونجزئها، ثمَّ نفرِّق بين عناصره، فنجعل لكلّ مقاطعة ومدينة مصلحة تتعارض مع مصالح المقاطعات والمدن، فتتحاقد، وحينئذ يتمّ لنا الحكم!»

ثمَّ التفتتا إلى العرب وقالتا لهم: «ما أنتم بكفء لفهم مصالحكم وحقوقكم، فيجب؛ حرصًا على منفعتكم، جعلكم تحت الوصاية. فإنَّ من الواجب على الذين يحملون النّور، أن يضيئوا للذين هم في الظَّلام! وهكذا كان!».

جريمة مزدوجة

اكتفت فرنسا بالتَّجزئة، أمَّا بريطانيا فلم تكتفِ، فقد جعلت القسم الغربيّ من حصَّتها (فلسطين) وطنًا لأمَّة غريبة مكروهة؛ تنفيذًا لوعد دلت الثورات المتتابعة على أنَّه ليس بالوعد العمليّ الممكن تحقيقه؛ كونه لم يصدر عن وعي وإدراك، وإنَّما صدر عن هستيريا تشبه الجنون! عدا أنَّ فلسطين جزء لا يتجزَّأ من سوريا، وهي القلب النَّابض لبلاد العرب كلّها، ويقدّسها جميع المسلمين في العالم.

نقول المسلمون فقط؛ لأنَّه لو كان مسيحيّو الغرب يقدّسونها فعلًا، لما صادقت دولهم الاثنتان والخمسون على جعلها وطنًا لمن صلبوا رئيس ديانتهم!

وهكذا تنقضي العشرون سنة على وجود الإنجليز في فلسطين، وهي مضطربة، تجتاحها الهجرة اليهوديَّة المسلَّحة؛ الشَّرعيَّة منها وغير الشَّرعيَّة، وتفاجئها الثَّورة المرَّة بعد المرَّة!

وكلَّما التجأ العرب إلى بريطانيا، واستنجدوا بها من هذا الخطر الدَّاهم، قالت لهم: «ليس في يدي من الأمر شيء، إنَّه قرار اثنتين وخمسين دولة!»

أما كيف حقّ لهذه الدُّول أن تقرِّر، وأن تتصرَّف بملك الغير، فلغز من الألغاز السِّياسيَّة التي لم يستطع العرب حلّها إلى الآن!

الانتداب فاشل

هذا في أفريقيا فكيف في فِلَسطين؟!

«مدينة الكاب في ١٢ حزيران سنة ١٩٣٦. أصدرت اللَّجنة المؤلّفة من قاضيين واقتصاديّ، التي عيّنتها حكومة أفريقيا لفحص نظام الحكم في المنطقة الواقعة تحت الانتداب في جنوبي غربي أفريقيا قرارها اليوم. وقد أجمعت فيه على القول إنَّ النِّظام الحاليّ قد ثبت فشله، ويجب أن يُلغى»

«روتر»

لم تكن خسائر العرب في ثورتهم الحاضرة من نفوس وأموال وممتلكات، وما سبقها من خسائر مثلها خلال ثمانية عشر عامًا؛ إلَّا نتيجة لسياسة شاذَّة، حاولت التَّوفيق بين آمال العرب، ومطامع المستعمر، وأماني الصّهيونيَّة، وقامت على أساس تهويد فلسطين العربيَّة المسلمة - المسيحيَّة. هذه السِّياسة التي إن دامت جعلت من كلّ واحد منَّا ضحيَّة موت أو سجن أو نفي أو تشريد!

ولسنا ندري كيف أجازت بريطانيا لنفسها أن تهب لليهود بلادًا لا نملكها، وأن تجعل من باطل نطقت به لهم حقًّا محترمًا، وأن تدافع عن هذا الباطل باسم الانتداب الذي هو باطل أيضًا!

وحجَّة الإنجليز في تمثيل هذه المأساة التَّاريخيَّة، أنَّهم يحافظون على شرف وعد أعطوه لليهود، بينما هم لا يحافظون على هذا الشَّرف، بنقضهم العهود المقطوعة منهم للعرب.

وإذا سألت اليهود ما حقُّكم في فِلَسطين قالوا إنَّنا كنا فيها منذ ألفي سنة! ولكنَّ الأمم التي تقلَّبت على فِلَسطين كثيرة، وكثيرة جدًّا، عرفنا

منهـا الأشـوريِّين والبابليِّـين والفـرس واليونـان والرُّومـان والعـرب والـتُّرك، وقياسًـا عـلى مـا يدَّعيـه اليهـود، يجـوز لأنسـال هـذه الأمـم أن تدَّعـي حقًّـا لهـا في العـودة إلى فِلَسـطين، وتأسـيس أوطـان قوميَّـة فيهـا، كـما يحـقّ للعـرب – وقـد كانـوا في الأندلـس مـدَّة ٧٠٠ سـنة – أن يعـودوا إليهـا، وأن يؤسِّسـوا لهـم مملكـة فيهـا!

وهنـاك ادِّعـاء آخـر، هـو أنَّ اليهـود وعـدوا في التّـوراة بالعـودة إلى فلسـطين، وبنـاء هيكلهـم فيهـا، ولكـنَّ التّـوراة كتـاب يهـوديّ، ولليهـود أن يفـسِّروا مـا جـاء فيـه حسـب أهوائهـم وأغراضهـم، أمَّـا نحـن العـرب، فالمسـلمون منَّـا لهـم كتابهـم المقـدَّس وهـو القـرآن الكريـم، والمسـيحيُّون لهـم كتابهـم المقـدَّس، وهـو الإنجيـل، وإذن، فنحـن لسـنا مسـتعدّين أن نقبـل تفسـيرًا في كتـاب غيرنـا، يسـتغلّ أصحابـه احترامَنـا لـه، في حرماننـا مـن وطننـا المقـدَّس، وتشريدنـا في بقـاع الأرض!

الكلّ باطل

هـذا هـو منطـق الإنجليـز واليهـود في قضيَّـة فِلَسـطين، وهـو منطـق باطـل بُنِـيَ عـلى أسـاس باطـل أيضًـا، هـو صـكّ الانتـداب، ومـا دام الانتـداب – كـما قلنـا – باطـلًا مـن أساسـه، فلجنـة الانتدابـات هـي باطلـة أيضًـا، أقامهـا الباطـل؛ لتشـير عـلى الباطـل في تنفيـذ سياسـة باطلـة، وكـما قـال سـليمان: «باطـل الأباطيـل الـكلّ باطـل!».

نعـود إلى ذكـر مـا صدرنـا بـه هـذا المقـال، وهـو أنَّـه إذا كان الانتـداب قـد ثبـت فشـله في جنـوبي غـربي أفريقيـا، وطلبـت اللَّجنـة الخاصَّـة لفحصـه إلغـاء، فأحـر بالانتـداب عـلى فلسـطين أن يكـون أكـثر فشـلًا، وأكـثر وجوبًـا للإلغـاء.

إنَّ تمسُّـك بريطانيـا بهـذا الانتـداب الباطـل، معنـاه أنَّهـا مـا تـزال ترغـب في الإشراف عـلى هـذا الـصِّراع العنيـف بـين الحـقّ والباطـل، ولكـنَّ الحـقّ وحـده هـو الـذي سـينتصر!

دينيَّـة ومدنيَّة فقط

صكّ الانتداب

في يـوم ٢٤ يونيـو سـنة ١٩٢٢، أقـرّ مجلـس عصبـة الأمـم في لنـدن صـكّ الانتـداب عـلى فِلَسـطين، وقـد جـاء في إحـدى حيثيَّاتـه مـا يـلي: «وحيـث إنَّ دول الحلفـاء الكـبرى وافقـت أيضًـا عـلى أن تكـون الدَّولـة المنتدبـة مسـؤولة عـن تنفيـذ التَّصريـح الـذي صرَّحـت بـه حكومـة جلالـة ملـك بريطانيـا في ٢ نوفمـبر سـنة ١٩١٧ للشَّـعب اليهـوديّ، مـع البيـان الجليّ بـألَّا يفعـل شـيئًا يـضرّ بالحقـوق الدِّينيَّـة والمدنيَّـة التـي تتمتَّـع بهـا الطَّوائـف (غـير اليهوديَّـة) المقيمـة في فلسـطين، ولا الحقـوق أو المركـز السِّـياسيّ الـذي يتمتَّـع بـه اليهـود في البـلاد الأخـرى».

هـذا هـو صـكّ الانتـداب، وهـذا هـو اليـوم الـذي كُتِبَـت فيـه العبوديَّـة عـلى عـرب فِلَسـطين، ومـن هـذا التَّاريـخ إلى اليـوم، وهـم ينـؤون تحـت عـبء ذلـك الصَّـكّ المشـؤوم، الثَّقيـل الظـلّ، الـذي فـرض عليهـم فرضًـا، دون أن يكـون لهـم مـن يمثّلهـم في ذلـك المجلـس الباطـل، مجلـس عصبـة (المسـتهزئين بحقـوق) الأمـم الضَّعيفـة، والعابثـين بحرِّياتهـا المغتصبـة!

الحقوق السِّياسيَّة

ومـن أمعـن النَّظـر في محتويـات هـذا الصـكّ المشـؤوم، يتمثَّـل لـه لـؤم دول الغـرب، وعبثهـا بمبـادئ الإنسـانيَّة والـشَّرف، في تسـمية عـرب فِلَسـطين بالطَّوائـف غـير اليهوديَّـة، وتجاهـل حقوقهـم السِّياسـيَّة في بلادهـم، كأنَّ اليهـود الأصـل والعـرب الفـرع، وهـذا أقـصى مـا عـرف التَّاريـخ مـن ضروب الخـداع والتَّضليـل!

ولسنا ندري ماذا يكون مستقبل العرب في بلادهم، إذا حفظت لهم فيها حقوقهم الدّينيَّة والمدنيَّة، وأنكرت عليهم حقوقهم السِّياسيَّة، وهل للحقوق الدِّينيَّة والمدنيَّة كرامة، إذا لم يكن هناك حقوق سياسيَّة ووطنيَّة تدعمها؟!

وإذن، فمعنى صكّ الانتداب أن يكون لليهود حقّهم السِّياسيّ في البلاد، أي حقّ الحكم والسَّيطرة، وأن يكون للعرب حقّ الطَّاعة، وثمنًا لهذه الطَّاعة، تحفظ لهم حقوقهم الدّينيَّة والمدنيَّة!

الحقوق الدِّينيَّة والمدنيَّة

والذي نستطيع فهمه من الحقوق الدِّينيَّة أن يصلّي العربيّ في جامعه أو كنيسته، ومن الحقوق المدنيَّة أن يحافظ على ماله ونفسه، ولكنّ هذه الحقوق بقسميها الدِّينيّ والمدنيّ، ليست كلّ ما كان يبغيه العرب من ثورتهم على التّرك، ونصرتهم للحلفاء موقّعي صكّ الانتداب؛ لأنَّ تلك الحقوق كانت مضمونة لهم على مدى واسع في زمن الحكم التُّركيّ، وكانوا يتمتَّعون بها إلى أقصى درجات الحريَّة والاحترام، ولكنَّ الذي كان يبغيه العرب، وقد ضحّوا في سبيله بأرواحهم، أن يحصلوا على حقوقهم السِّياسيَّة في بلادهم. الحقوق التي تحمل بين طيَّاتها كلّ معاني الحريَّة والاستقلال، والعرب لا يُلامون إذا هم قاوموا كلّ محاولة يُقصَد منها إذلالهم وتجريدهم من حقوق يتمتَّع بها غيره من بني الإنسان!

بريطانيا والعرب

مقدّمة

من المعلوم أنَّ الدُّول الأوروبيَّة، لا تقدم على عمل ما، ما لم تتأكَّد مبلغ المنفعة التي تعود عليها منه، سواء أكانت تلك المنفعة ماديَّةً أو سياسيَّةً، وما عدا ذلك، فكلّ ما تدَّعيه تلك الدُّول من خدمتها الإنسانيَّة والمحافظة على السِّلم العالميّ، وتقرير مصير الشُّعوب، هراء في هراء!

ومتى تقرَّر لدينا هذا المبدأ، استطعنا إدراك السَّبب الذي لأجله اضطرت بريطانيا العظمى إلى وعد اليهود بإنشاء وطن لهم في فِلَسطين، رغم العهود التي قطعتها للعرب في ذلك التَّاريخ، بإنشاء إمبراطوريَّتهم الموعودة.

بعد الحرب الكبرى

انتهت الحرب الكبرى، فوجد العرب أنفسهم أمام مؤامرة دوليَّة، حاكت خيوطها الدّولتان الاستعماريَّتان الكبيرتان، بريطانيا وفرنسا، وكان ما كان من تجزئة بلادهم والقضاء على استقلالهم، ونخصّ بالذّكر فلسطين التي لم يقض على استقلالها السِّياسيّ فحسب، بل والقوميّ أيضًا؛ لأنَّ السِّياسة التي اتَّبعتها بريطانيا في مدَّة ١٨ سنةً، كانت ترمي إلى جعل فلسطين يهوديَّة، متمسِّكة بوعد أو هي من خيط العنكبوت.

وقد أدَّى تمسُّك بريطانيا بتنفيذ هذا الوعد إلى النَّتائج التَّالية:

١) إغضاب ٨٠ مليونًا من العرب، و٤٠٠ مليون من المسلمين؛ لتهويد بقعة هي قبلتهم الدّينيَّة، ومتحف آثارهم التَّاريخيَّة الخالدة.

٢) إضعاف ثقة العرب ببريطانيا العظمى لإخلالها بعهودها لهم.

٣) القضاء على سمعة بريطانيا في العالم باتّباعها سياسة ظالمةً، لا تمتّ لتقاليدها الموروثة بِصِلة.

إيطاليا في الحبشة

والبحث بطبيعته يقودنا إلى ذكر الحرب الإيطاليَّة الحبشيَّة لعلاقتها بالموضوع؛ لأنَّ انتصار إيطاليا في هذه الحرب، جعل مركز بريطانيا في البحر الأبيض المتوسِّط في حالة لا تُحسَد عليها.

وبريطانيا في ظرف خطر مثل هذا ليس من مصلحتها أن توجد لها أعداء، يعرقلون سياستها، فيما إذا اشتبكت في حرب عالميَّة.

وليس من شكّ أنَّ جميع الشُّعوب العربيَّة التي هي تحت حماية بريطانيا أو انتدابها، غير راضية عن السِّياسة الحاضرة، أو قل هي ناقمة عليها. وفرصة مثل هذه يجود بها الدَّهر، يجعلها أن تغتنمها للوصول إلى تحقيق أهدافها الوطنيَّة.

العرب حماة الإمبراطوريَّة

والعرب كما هو معلوم، كانوا في الحرب الكبرى أعظم عون لدول الحلفاء - وبخاصَّة بريطانيا - في حملتهم على التّرك، وطردهم من الحجاز والعراق وسوريا وفلسطين، أو بالأحرى من جزيرة العرب كلّها، ومقابل هذا العون، أُعطِيَتِ العهود للعرب بتشكيل إمبراطوريَّتهم وعودة استقلالهم إليهم، ولكنَّها لم تُنَفَّذ.

والمهـمّ لـدى بريطانيـا في الدَّرجـة الأولى طـرق مواصلاتهـا الإمبراطوريَّـة، وسـيادتها عـلى البحـر الأبيـض المتوسِّـط، وهـو الطَّريـق الموصـل إلى جميـع ممتلكاتهـا في الـشَّرق، ومراكـز هـذه الطّـرق تقـع كلّهـا في بـلاد عربيَّـة، وتـشرف عليهـا شـعوب عربيَّـة؛ مـمَّا يـدلّ دلالـة واضحـة عـلى أنَّ بريطانيـا العظمـى في حاجـة قصـوى إلى صداقـة العـرب، وبهـذه الصَّداقـة وحدهـا – لا صداقـة غيرهـم كاليهـود – يمكنهـا أن تطمـئن عـلى هـذه الطُّـرق التـي هـي بمثابـة الشَّرايـين في جسـم إمبراطوريَّتهـا.

المصلحة المتبادلة

مـمَّا تقـدَّم، نسـتطيع أن نقـرِّر بـأنَّ المصلحـة المتبادلـة هـي التـي تضطـر العـرب إلى الالتجـاء لبريطانيـا كقـوَّة عظمـى، يسـتندون إليهـا عنـد أيّ خطـر يتهدَّدُهـم، وتضطـر بريطانيـا إلى الالتجـاء للعـرب بالنَّظـر إلى موقـع بلادهـم الجغـرافيّ الـذي لا غنـى لهـا عنـه.

وقـد شـعر العـرب بأهمِّيَّـة مركزهـم في سياسـة العـالم، وتنبَّهـوا إلى مـا يحيـق بهـم مـن أخطـار، فانصرفـوا في المـدَّة الأخـيرة إلى تكويـن حلـف عـربيّ يشـمل ملوكهـم وأمراءهـم؛ ليقـف حائـلًا دون وقـوع أيّ خطـر لـه علاقتـه بجزيـرة العـرب.

العرب أوفياء

والعـرب كانـوا ومـا يزالـون أوفيـاء لبريطانيـا، بالرّغـم مـمَّا صـدر عنهـا مـن سـيِّئات نحوهـم، وهـم عـلى أتـمّ الاسـتعداد لمـدّ يـد الصَّداقـة الحقيقيَّـة لهـا، تدعمهـا المصالـح المشـتركة، وتقديـم كلّ مـا يسـتطاع مـن المعونـة التـي لا تثمـن بالنّسـبة إلى ظـروف بريطانيـا الحرجـة في الوقـت الحـاضر، والعـرب مشـهورون بالوفـاء لأصدقائهـم؛ وبـذل كلّ تضحيـة في سـبيل هـذا الوفـاء.

فلسطين نقطة الدَّائرة

ومـن المعلـوم أنَّ فِلَسـطين هـي نقطـة الدَّائـرة أو المحـور الـذي تـدور عليـه السِّياسـة العربيَّـة في الوقـت الحـاضر، والحلـف العـربيّ لا يتـمّ تكوينـه إلَّا بانضـمام هـذه البـلاد إليـه، وحينئـذٍ نسـتطيع القـول إنَّ حلـم الوحـدة العربيَّـة قـد تحقَّـق، وأن تنفيـذه تـمّ عـلى الوجـه الأكمـل.

جنت على أهلها براقش

«واطلبوا سلام البلاد التي أجلبتكم إليه وصلّوا لأجلها إلى الربّ؛ لأنّه بسلامها يكون لكم سلام، لا تغشّكم أنبياؤكم الذين في وسطكم وعرّافوكم، ولا تسمعوا لأحلامكم التي تتحلّمونها؛ لأنّهم إنّما يتنبأون لكم باسمي بالكذب. أنا لم أرسلهم يقول الربّ»

«إرميا ص٢٩ عد ٧-٩»

حكاية الوطن القوميّ

يُحكى أنَّ (جحا) أراد مرَّةً أن يمازح أهل بلدته فشرع يصيح قائلًا: «أيُّها النَّاس! إنَّ فلانًا أقام وليمة، وهو يدعوكم إليها»، فصدَّقه النَّاس، ولمَّا رآهم جحا يتراكضون لحضور الوليمة الموهومة ظنَّ أنَّ ما قاله لهم حقٌّ، وأخذ هو الآخر يركض خلفهم!

وحكاية الوطن القوميّ اليهوديّ قريبة الشَّبه بحكاية جحا، فإنَّ بريطانيا العظمى وعدت - لغاية ما - اليهود بإنشاء هذا الوطن فصدّقوا، وأخذوا يتراكضون إلى فِلَسطين كأنَّها وطنهم حقيقة، وظنَّت بريطانيا أنَّ ما قالته لهم حقٌّ، فأخذت هي الأخرى تركض خلفهم؛ لتشترك وإيَّاهم في اقتسام الغنيمة!

وطن روحيّ فقط

يفهم العرب أن يتَّجه الصّهيونيُّون إلى فِلَسطين بقلوبهم وأرواحهم، ولا ينكرون عليهم أن يعدّوها وطنًا روحيًّا لهم، ولكنَّ هذا ليس من مقتضياته أن يستولوا على فِلَسطين، وينزعوها من أصحابها، وفلسطين وطن روحيّ لكلّ مسلم ومسيحيّ أيضًا في أقطار الأرض كلّها، وليس هنالك تفاوت من هذه النَّاحية بين مسلم ومسيحيّ ويهوديّ، ولكنَّ

المسلمين أو المسيحيِّين لا يطلبون من أجل ذلك أن يستولوا على فِلَسطين، ويطردوا أهلها منها!

عودة إلى التَّاريخ

وإذا عدنا القهقرى في تاريخ الشَّرق كلّه، وجدنا أنَّ صحائفه لم تتدنَّس حتَّى الآن باللَّاساميّة، ولم تنتقل عدوى اضطهاد اليهود بعد إليه، كما هو جار الآن، وقبل الآن في أوروبا، وإذا ما تحدَّث التَّاريخ عن البلاد العربيَّة فإنَّما يتحدَّث عن أوطان طوّقت أعناق اليهود منذ أقدم الأزمنة بنعمته وإحسانه. تلك الأوطان التي كانت وما تزال أشبه شيء بالواحة الهادئة الخضراء وسط صحراء قاحلة من عهود المظالم وأحقاب الاضطهاد التي كانت من نصيب اليهوديّ في كثير من البلدان التي تدَّعي الحضارة والمدنيّة.

فهذا الذي نقرّره أكبر دليل على أنَّ الشَّرق بنوع عام وبلاد العرب بنوع خاصّ، كان وما يزال أرحب صدرًا بهذا الشأن من الغرب، وأنَّ أديانه المتعدّدة وعلى رأسها الإسلاميَّة كانت وما تزال أكثر تسامحًا من الدّيانة المسيحيَّة في معاملة اليهود.

مستقبل اليهود في الشَّرق

فإذا كانت بريطانيا العظمى تتمسَّك بوعد بلفور لتحقيق مآربها السِّياسيَّة في فِلَسطين، فأحر باليهود أن يتبصَّروا في الأمر جيّدًا، وأن يعلموا أنَّ تحقيق مثل هذا الوعد سيجعل مجالًا لتسرُّب اللاساميَّة إلى الشَّرق، ويثير عليهم اضطهادًا ليس في فِلَسطين وحدها، بل في عموم بلاد العرب والإسلام.

إنَّ اليهـود لا يمكنهـم أن يطمئنّـوا عـلى وجودهـم في فِلَسـطين، إلَّا إذا مزَّقـوا وعــد بلفــور بأيديهــم، ونزعــوا حلــم المملكــة اليهوديَّــة مــن أفكارهــم وتصوُّراتهــم، واقتنعــوا بالعيــش في البــلاد كغيرهــم مــن النَّــاس.

ومـا زاد على ذلك فهو من الشِّرّير.

حكمة سليمان

«أكّد لنا الكثيرون وتحقّقنا نحن بأنفسنا أنّه لولا وجود القضيَّة اليهوديَّة في فِلَسطين، لما لاقت الحكومة أقلّ صعوبة في إدارة الشُّؤون المحليَّة، ونعتقد أنَّ كره العرب للبريطانيِّين نشأ عن مساعدة الحكومة للسِّياسة الصّهيونيَّة»

«من تقرير لجنة هايكرافت لسنة ١٩٢١»

مختبر كيماويّ

إنَّنا إذا رجعنا إلى ما قبل عشرين سنةً في تاريخ فلسطين، وبحثنا عن أسباب عدم الاستقرار فيها، وجدناها في محاولة إنشاء الوطن القوميّ اليهوديّ فيها.

وقد جعلت الحكومة البريطانيَّة من فِلَسطين - بهذه المحاولة - مختبرًا كيماويًّا، كانت مواد الاختبار فيه أرواح السُّكَّان من عرب ويهود وإنجليز!

والذي يحزُّ في نفس كلّ محبّ للسَّلام أنَّ السِّياسة المتَّبعة في فِلَسطين ما تزال تقوم على فكرة إنشاء ذلك الوطن، بالرّغم ممَّا أثبتته التَّجارب القاسية من فساد هذه الفكرة واستحالة تنفيذها في عصر تنبثّ فيه روح القوميَّة في جميع شعوب الأرض، وبخاصَّة الشَّعب العربيّ في فِلَسطين الذي يأبى - ومعه الحقّ كلّه - إلَّا أن يكون مالكها الشَّرعيّ، والمهيمن على شؤونها ومقدّراتها.

تكهّنات تحقَّقت

ومأساة فِلَسطين الحاليَّة، سبق وتكهَّنت بوقوعها شخصيَّات كبيرة، لها بصرها النَّافذ في سبر غور حوادث المستقبل واحتمالاته، نذكر منها:

أوّلًا: اللورد بلفور، صاحب الوعد المعروف بإنشاء وطن قوميّ لليهود في فِلَسطين. هذا اللّورد يقول عن وعده «إنَّه تجربة، ولكنَّها تجربة خطيرة جدًّا» واعترافه بخطرها، دليل على أنَّها مبنيَّة على الظّلم، لا على الحقّ والعدل.

ثانيًا: الدّكتور ثيودور هرتسل، مؤسِّس الصّهيونيَّة وزعيمها، يقول في كتابه «الدَّولة اليهوديَّة» ما نصّه بالحرف الواحد: «لا يمكن استعمار اليهود في فِلَسطين إلَّا إلى حدّ تكون نهايته فاجعة مؤلمة؛ لأنَّ أهل البلاد سيشعرون يومًا ما بأنَّ مصالحهم مهدَّدة، وكيانهم في خطر، فيثورون على الاستعمار اليهوديّ ويوقفون الهجرة اليهوديَّة بالقوَّة».

ثالثًا: لجنة الاستفتاء الأمريكيّة تقول في تقريرها: «إنَّ البرنامج الصّهيونيّ لا يمكن تنفيذه إلَّا بالقوَّة التي يجب ألَّا تقلّ عن ٥٠ ألف جنديّ ... نعم إنَّه لا بدّ من الجيوش في بعض الأحيان لتنفيذ بعض المقرَّرات، ولكن ليس من المعقول أن تُستَخدَم الجيوش لتنفيذ مقرَّرات جائرة».

ثالثة الأثافي

وثالثة الأثافي في المشكلة، أن تقترح اللَّجنة الملكيَّة تقسيم فِلَسطين بين العرب واليهود، ولو كانت اللَّجنة الملكيَّة - في تحقيقها - غير مقيّدة بنصوص الانتداب؛ لاستطاعت أن تجهر بحقّ العرب، وكشف ظلاماتهم السِّياسيَّة، ولمَّا فكَّرت بغير منحهم الحكم الذَّاتيّ الذي يستحقّونه.

وأكبر دليل على صحَّة ما نقول، ما ورد في تقرير اللَّجنة الفصل التَّاسع عشر بعنوان «الاستنتاجات والتَّواصي»، وهذا نصُّه: «ونحن وإن كنَّا نعتقد أنَّ العرب يشعرون شعورًا صادقًا بهذه الظّلامات، فمن رأينا أنَّه لا يمكن اعتبارها ظلامات مشروعة بمقتضى شروط صكّ الانتداب؛ ولذلك لا نجد أنفسنا مكلَّفين بتقديم التَّواصي بشأنها، وليس في مقدورنا أن نشير إلى علاج بشأنها ... وليس في الإمكان ترقية مؤسَّسات الحكم الذَّاتيّ في الظُّروف الخاصَّة التي وضعت فيها فلسطين بموجب صكّ الانتداب – الفقرة ٩».

التَّقسيم وحكمة سليمان

ويذكرنا اقتراح التَّقسيم بحكاية ذُكِرَت في التَّوراة، تؤثَر عن سليمان وحكمته في تصريف الأمور، هذه خلاصتها:

أتت امرأتان إلى الملك سليمان ووقفتا بين يديه، فقالت الأولى: «إنَّني أنا وهذه المرأة ساكنتان في بيت واحد، وقد ولدت وولدتُ معَها في البيت الذي لم يكن فيه أحد سوانا، فمات ابن هذه في اللَّيل، فقامت وأخذت ابني من جانبي وأنا نائمة وأضجعته في حضنها، وأضجعت ابنها الميّت في حضني، ولمَّا تأمَّلت فيه في الصَّباح إذ هو ليس ابني الذي ولدته، وكانت المرأة الأخرى تقول كلّا بل ابني الحيّ، وابنك الميّت!

فقال الملك: «اشطروا الولد الحيّ اثنين، وأعطوا نصفًا للواحدة ونصفًا للأخرى».

فتكلَّمت المرأة التي ابنها الحيّ إلى الملك لأنَّ أحشاءها اضطربت على ابنها، وقالت: استمع يا سيّدي، أعطوها الولد الحيّ ولا تميتوه. أمَّا تلك فقالت لا يكون لي ولا لك: اشطروه! فأجاب الملك وقال: أعطوها الولد الحيّ ولا تميتوه، فإنَّها أمّه!

***

فإذا كان هناك «عدل بريطانيّ» كما يقولون، فالعمل بهذه الحكمة البالغة خير وأبقى، وقد قيل: «إنَّ الرّجوع إلى الحقّ خير من التَّمادي في الباطل».

نريد للشَّرق سنة مجنونة!

شاءت الأقدار أن يظلّ الشَّرق مطمح أنظار المستعمرين، يمثّلون على مسرحه ما أتقنوه من أدوار الطَّمع الأشعبيّ، وما ألفوه في الشَّرقيين من مسكنة وخنوع! وقد انتاب الجزيرة العربيَّة من أطماع المستعمرين ما جعلها نهبًا مقسمًا بينهم.

قرَّرت عصبة الأمم أن تدار البلاد العربيَّة المنسلخة عن تركيا بنظام دعته نظام الانتداب، تخت إشراف دولتين استعماريّتين كبيرتين، هما بريطانيا وفرنسا، فكان هذا الانتداب ظاهره الرَّحمة وباطنه العذاب! ولو كان العرب في ذلك الحين على حذر من دسائس الدُّول الأجنبيَّة لما قبلوا بالانتداب، ولو كانت ثقافتهم السِّياسيَّة ناضجةً نضجوها اليوم لما رضوا لبلادهم بغير الاستقلال.

ومن تحصيل الحاصل أن نعيد ذكر ما قامت به هاتان الدّولتان – بعد الحرب الكبرى – من تقطيع أوصال البلاد العربيَّة بسياسة الإقليميَّة، إذ قد أصبح أمره معروفًا لدى الجميع، ولكنّ الذي نريد تبيانه ما تقومان به اليوم بالاشتراك مع اليهوديَّة العالميَّة وتركيا، من تقطيع أوصال بلاد العرب جغرافيًّا؛ وذلك:

١) في منح منطقة الجزيرة في شمالي سوريا استقلالًا ذاتيًّا منفصلًا.

٢) في اقتطاع لواء الإسكندرونة وضمّه إلى تركيا.

٣) في فصل جبل العلويين من حكومة سوريا وضمّه إلى حكومة لبنان.

٤) في تقسيم فلسطين إلى قسمين وجعل القسم السَّاحليّ منها مملكة لليهود.

ومن الغريب في هذا الوقت العصيب الذي تسوده روح الحرب، وتتفاقم فيه كراهية الشُّعوب المستعبدة لكلّ محاولة تقف دون أمانيها القوميَّة، أن تستمرّ الدُّول المستعمرة في سياستها العقيمة المشبعة بروح الاستعمار البغيض؛ السِّياسة التي لا نشكّ في أنَّها ستكون يومًا ما الشَّرارة الأولى لإشعال نار حرب ضروس بين أمم الأرض وشعوبها! وهذه الأزمة التي تهدِّد سلام العالم، ليس لها من سبب إلَّا معاهدة فرساي المشؤومة سنة ١٩١٩، المعاهدة التي لم تكن إلَّا نسخة طبق الأصل لمعاهدة فيينا سنة ١٨١٥، يوم قسّمت الدُّول الكبرى خريطة العالم بينها، حسب أهوائها وأغراضها السِّياسيَّة، فلم تكد تجيء سنة ١٨٤٨ حتَّى هبَّت الشُّعوب المغبونة، ومزّقت تلك المعاهدة شرّ ممزّق، وأرغمت أصحابها على الاعتراف بحقّ كلّ شعب في تقريره مصيره.

وبين وضع معاهدة فيينا في سنة ١٨١٥ وتمزيقها مدَّة ٣٣ سنة، فهل يا ترى تمزَّق معاهدة فرساي التي مضى على عقدها ١٩ سنة، قبل مرور هذه المدَّة؟

إنَّ الدَّلائل كلّها تدلّ على أنّها ستمزّق قبل هذه المدَّة بكثير؛ لأنَّ واضعي معاهدة فرساي، هم كواضعي معاهدة فيينا، المجرمون الرَّئيسيُّون وأصل جميع المشاكل التي يتخبَّط فيها العالم.

والسّنة التي مُزِّقَت فيها معاهدة فيينا سُمِّيَت بالسَّنة المجنونة لأنَّ جميع شعوب أوروبا قامت بحركات عنيفة أرغمت القوَّة على الرّضوخ لمشيئة الحقّ.

لقد كانت هذه السَّنة (المجنونة) مختصَّة بأمم الغرب وحدها، أمَّا السَّنة المجنونة القادمة، فستختصّ بأمم الشَّرق إن شاء الله.

ثورة!

«إنَّ سياسة الشِّدَّة لن تزيل الظّلامات ولن تمنع تكرّرها، وهي لا تعدو حدّ كونها مسكّنات ليس إلَّا، فقد تخفّف من شأن الالتهاب وتنزل الحرارة؛ ولكنَّها لا تقوى على استئصال شأفة الدَّاء»

«من تقرير اللَّجنة الملكيّة»

الجهاد قوميّ والقضيَّة عادلة

لقد هال الغرب المستعمر ثورتنا القوميَّة الحاضرة، فأخذت بعض جرائده الفاجرة تشوِّهها - كما هي عادتها - بأنَّنا مدفوعون إليها بعوامل وأموال أجنبية. تارة تقول نازية، وطورًا تقول فاشستية أو شيوعيَّة، ولمَّا أثبتت الحقيقة ضلال ما تدَّعيه هذه الجرائد الاستعماريَّة اللَّئيمة، شرعت تلقي على جهادنا صبغة دينيَّة، بينما هو جهاد قوميّ، لا إسلاميّ ولا مسيحيّ. جهاد قمنا به خالصًا لوجه الله، نغذّيه بأرواحنا، وننفق عليه من أموالنا المكتسبة بعرق الجبين!

التَّهديد لا يجدي نفعًا

إنَّ تهديد بريطانيا العظمى لنا لغة - لكثرة ترديدها - ألفنا سماعها. وسياسة القمع لا تستطيع أن تجعل من الباطل حقًّا، مهما اتَّبع في تطبيقها من شدَّة وتصميم!

إنَّ مطالب الأمَّة لم تتعدَّ ما يجيزه القانون، ولم تخالف ما تأمر به شرائع الأرض! هي مطالب يحقّ لكلّ أمَّة مثلنا أن تطالب بها؛ لأنَّها

تتعلَّق يصميم كياننا ومستقبلنا، وهل المطالبة بحقّ هضيم يجازى عليه الإنسان بالتَّهديد والوعيد؟

أليس الإنجليز هم الذين يتبجَّحون بنصرة الحقّ والعدل؟ أليسوا هم الذين يدَّعون المدافعة عن حقّ المظلوم وعن سلامة الأمم الضَّعيفة؟

وإذن، فلماذا لا يطبّقون المبدأ نفسه على هذه البلاد الصَّغيرة، التي فقدت سلامتها مدَّة عشرين سنة؟

الدَّاء والدَّواء

إنَّ العرب أوّل من أخلص لبريطانيا في الحرب الكبرى، وأوَّل من حارب في صفوفها جنبًا إلى جنب، ولكنّ بريطانيا جازتهم على ذلك باقتطاع أقدس قطعة من جسم بلادهم، وهي فِلَسطين؛ لتكون وطنًا قوميًّا لليهود.

وإذا ما قاوم العرب هذا الظُّلم، وخان بريطانيا العظمى المنطق، هدَّدتهم بالقوَّة، وجابهتهم بالحديد والنَّار!

وموقف بريطانيا من هذه الجهة، يذكّرنا بموقف «فوكييه تانفيل»، النَّائب العام في محكمة الثَّورة الفرنسيَّة، حينما خانه المنطق في إثبات تهمة الخيانة الكبرى للثَّورة، ضدّ «كيمي ديمولان» ورفاقه الذين هم أوَّل من دفع بالجماهير إلى إعلان الثَّورة، وفي مقدّمة من أخلص لها.

قال النَّائب العام: «إنَّ استماتة المتَّهمين في الدِّفاع عن أنفسهم لهي ثورة على العدالة والقانون، ودليل على أنَّهم مجرمون حقًّا، إذ لو كانوا أبرياء لفوّضوا أمرهم إلى القضاء، وانتظروا حكمه العادل مطمئنّين!».

والمنطـق الـذي تتـذرَّع بـه بريطانيـا العظمـى في الحكـم عـلى عـرب فِلَسـطين، هـو مـن نـوع منطـق النَّائـب العـام في محكمـة الثَّـورة الفرنسـيَّة، في الحكـم عـلى «ديمـولان» ورفاقـه، فكأنَّـه تقـول للعـرب: «إنَّ اسـتماتتكم في الدِّفـاع عـن بلادكـم لهـي ثـورة عـلى عدالـة بريطانيـا، وقانونيَّـة وعـد بلفـور، وحرمـة صـكّ الانتـداب، ودليـل عـلى أنَّكـم مجرمـون!»

لكـن، هنـاك حكمـة فارسـيَّة تقـول: «مصـير الظّلـم والعـدوان، ارتـكاس الإيـوان، وانطفـاء نـار الموبـاذان» واللـه أعلـم.

* ارتكـس: انتكـس. وقـع في أمـر كان نجـا منـه. والإيـوان: إيـوان كـسرى بمعنـى قـصره. ونـار الموبـاذان: النَّـار المقدّسـة، وهـما عنـد الفـرس نذيـرا الخـراب والدّمـار!

أمانينا القوميّة!

إلغاء الانتداب، ثمَّ الاستقلال، ثمّ الوحدة

مقدمة

طرق ثلاث لا رابع لها لإنقاذ فلسطين من شرور الانتداب والتزاماته:

١) إمَّا ضمّ فِلَسطين لسورية.

٢) وإمَّا إلحاقها بالعراق.

٣) وإمَّا الجمع بينها وبين شرق الأردن.

وهذه الطّرق الثَّلاث قد ترى لأوَّل وهلة صعبة التَّنفيذ، لكنّ الواقع يثبت أنّ لا بدّ من اللُّجوء إلى واحدة منها إن آجلًا أو عاجلًا؛ لأنّ كلّها معقول، وكلّها مستطاع التَّنفيذ.

ولندرس الآن المقترحات الثّلاثة على ضوء البحث النّزيه، والتَّفكير المجرَّد من كلّ غاية:

ضمّ فلسطين لسورية

جعلنا هذا الاقتراح في الدّرجة الأولى لأنَّه معقول، وأقرب إل المنطق من وجهته الطَّبيعيَّة، وفِلَسطين - كما هو معلوم - جزء سوريّة الجنوبيّ الذي لا يتجزَّأ منها، هذه هي الأمّ، وتلك هي الابنة.

ولكنّ هنالك عقبة، وهي أنَّ سوريا تحت النّفوذ الفرنسيّ، وفلسطين تحت النّفوذ البريطانيّ، فكيف نستطيع أن نوفَّق بين النّفوذين؟

هذا سؤال وجيه، ولكنَّ الطَّبيعة الحكيمة وحَّدت بين القطرين قبل

أن تكـون فرنسـا، وقبـل أن تخلـق بريطانيـا، فليـس هنالـك حاجـز جغـرافيّ أو لغـويّ أو ثقـافيّ أو قوميّ يفـرّق بينهـما، ومـن عَقَـدَ العقـدةَ يحلّهـا! ومـا عـدا ذلـك فالحـلّ معقـول مـن وجهاتـه الثَّـلاث، الطَّبيعيَّـة والاقتصاديَّـة والقوميَّـة.

إلحاق فِلَسطين بالعراق

وهـذا اقـتراح ثـانٍ، كان يجـب أن يكـون الأوَّل مـن وجهـة النَّظـر السِّياسـيَّة، فـإذا تعـذَّر ضـمّ فِلَسـطين لسـورية بسـبب اختـلاف النُّفـوذ السِّـياسيّ فيهـما، فلتلتحـق بالعـراق، وكلاهـما تحـت نفـوذ سـياسيّ واحـد، وتجمعهـما قوميَّـة واحـدة، ولغـة واحـدة، وثقافـة واحـدة، عـدا عـن أنّ هنـاك اتّصـالًا مادِّيًّـا يجمـع بينهـما أيضًـا، هـو خـطّ أنابيـب البـترول. هـذا الخـطّ الـذي يسـيل فيـه البـترول مـن منبعـه في العـراق، إلى مصبّـه في فِلَسـطين عـلى البحـر المتوسِّـط، وحينئـذ يكـون الحـلّ موفّقًـا مـن وجهاتـه الثَّـلاث: السِّياسـيَّة والاقتصاديَّـة والقوميَّـة.

الجمع بين فِلَسـطين وشرق الأردن

وهـذا اقـتراح ثالـث، لـه مـن المحاسـن مـا للاقتراحين الأولـين كلهـا: السِّياسـيَّة والطَّبيعيَّـة والاقتصاديَّـة والقوميَّـة، وإذن فليـس هنـاك مانـع يمنـع مـن تنفيـذ هـذا الاقـتراح، بالجمـع بـين شرق الأردن وفِلَسـطين، فتكـون الأخـيرة مرفـأ لـلأولى عـلى البحـر الأبيـض المتوسِّـط، وفي الجمـع بـين فِلَسـطين وشرق الأردن رجـوع إلى عمـل الطَّبيعـة الـذي لا يُقهَـر، وهـذا الجمـع بـين الاثنتين يكـون عـلى أسـاس عقـد معاهـدة مـع بريطانيـا، شـبيهة بمعاهـدتي سـوريا والعـراق، تحـلّ محـلّ نظـام الانتـداب الحـاليّ.

وهكـذا، ففـي تنفيـذ أحـد المقترحـات الثَّلاثـة، ننقـذ فِلَسـطين مـن خطـر الصّهيونيَّـة، وتتخلَّـص بريطانيـا العظمـى مـن التزاماتهـا المزدوجـة التـي أزعجـت بهـا السَّـماوات والأرض!

وبعـد ذلـك – لا قبلـه – نسـتطيع أن نصـدّق بـأنَّ هنـاك بـين بريطانيـا العظمـى والشَّـعب العـربيّ صداقـة تقليديَّـة تعـرف الحكومـة البريطانيَّـة قيمتهـا، وترغـب رغبـةً صادقـةً في أن تحافـظ عليهـا!

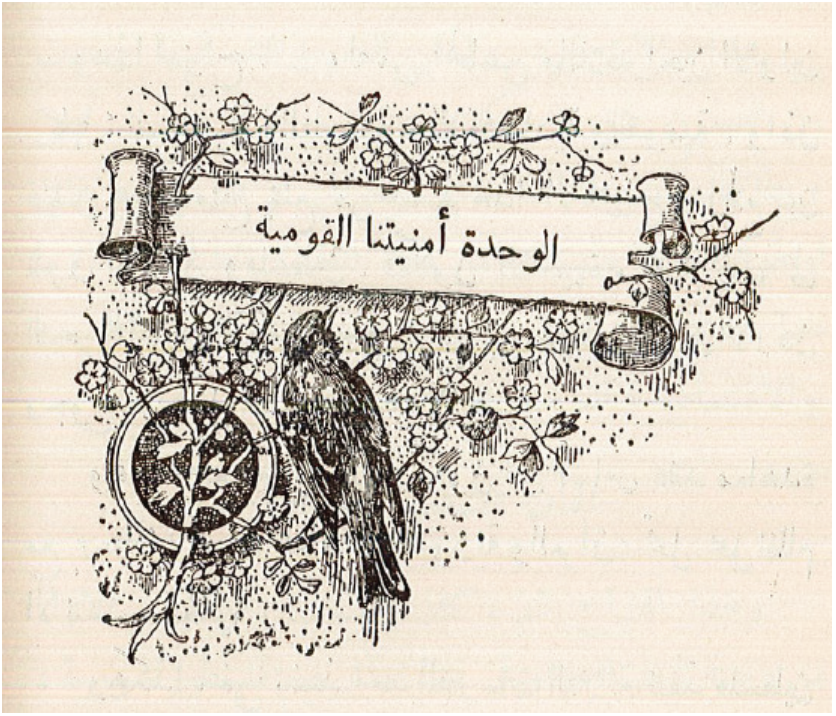

ضعف في مظهر قوّة

«إنَّ تطبيق نظام الانتداب بصورة عامَّة، وصكّ الانتداب بصورة خاصَّة، على فلسطين، كان ينطوي على الاعتقاد بأنَّ الالتزامات التي تعهَّدت بها الدَّولة المنتدبة للعرب واليهود قد يثبت على مرّ الزَّمن أنَّها قابلة للتَّوفيق بسبب ما يحدثه الرَّخاء الماديّ الذي ستجلبه الهجرة اليهوديَّة إلى فِلَسطين عمومًا من التأثير على العرب الفلسطينيِّين. على أنَّ هذا الاعتقاد لم يتحقَّق، وليس ثمَّة أمل بتحقيقه في المستقبل»

«تقرير اللجنة الملكية الفصل ٢٠ الفقرة ٣»

مقدِّمة

ثارت فلسطين العربيَّة من أقصاها إلى أقصاها لإظهار شديد نقمتها وعظيم استيائها من الحكم الجائر القائم في البلاد، ولكنَّ الحكومة المنتدبة ظنَّت - وبعض الظنّ إثم - أنَّ هذه الثَّورة سوف لا تدوم طويلًا، وأنَّ العرب سيعودون منها بخفَّي حنين؛ ولذلك لم تعرها اهتمامًا وعدَّتها صحوة الموت فيهم، لا تلبث أن تهمد!

١) التَّهديد والوعيد

ولكنَّ استفحال الثَّورة أقضّ مضاجع السُّلطة فاستيقظت، وخشيت أن يكون ما ظنَّته صحوة الموت في العرب مبعث حياة جديدة فيه، فراحت تعالج الموقف بالتَّهديد والوعيد، وتملأ البحر والبرّ والجوّ بأساطيل، ودبَّابات وطيَّارات، فكانت بعملها هذا خارجة عن الحقّ، والحقّ لا يحتاج إلى قوَّة؛ ولذلك لم يثنِ هذا التَّهديد الشَّعب عن عزمه، وكان الوعيد حافزًا له على الثَّبات والإقدام، وسجَّلت حكومة الانتداب في تاريخ سياستها الخرقاء فشلًا أوَّلًا.

٢) العطف المصطنع

قطعت السُّلطة أملها من سياسة التَّهديد فلجأت إلى سياسة العطف، ولكن على الفلَّاح فقط، لتبعده عن ميدان الجهاد، فلوَّحت له بإعفائه من نصف الضَّرائب على محصولاته، ومحصولاته كلّها لا تقوم بدفع نصف الضَّريبة المفروضة. فتنبَّه الفلَّاح إلى أنَّ هذا العطف جاء في غير وقته، وأنَّ الإعفاء مقصود منه الاستغلال لا الرَّحمة، فقابله بما يستحقّه من الازدراء، وسجَّلت حكومة الانتداب في تاريخ سياستها الخرقاء فشلًا ثانيًا!

٣) شهادات الهجرة

وفي هذه الثَّورة التي أعلنتها الأمَّة ضد الهجرة، وفي هذا الاضطراب الذي عمَّ البلاد كلّها، بسبب استمرارها، تعالج السُّلطة الدَّاء بالدَّاء، فتصرّ على وجوب هجرة اليهود إلى فِلَسطين بالبرّ والبحر والهواء!

أعلنت السُّلطة إصرارها هذا، ثمَّ التفتت إلى العرب، تتلمَّس في وجوههم آثار الانكماش، وفي قلوبهم حرقة اليأس. ولكنَّ العرب غرقى، والغريق لا يخشى البلل، وإذن، فعلى حكومة الانتداب أن تعود، وأن تسجّل في تاريخ سياستها الخرقاء فشلًا ثالثًا!

٤) إطراء اليهود بفضيلة ضبط النَّفس

وأمام هذه الحقيقة الواقعة، ومكابرة بالأمر المحسوس، يقف المندوب السَّامي بين اليهود مطريًا إيَّاهم بفضيلة ضبط النَّفس التي أظهروها أمام «اعتداءات العرب!»؛ ظنًّا منه أنَّ تحدِّيًا مثل هذا يؤثّر في معنويَّات الشَّعب الثَّائر، فيميل به إلى اليأس والقنوط، ولكن هذا كلّه لم يزد

الثَّورة إلَّا شمولًا، ولم يزد الشَّعب إلا عزيمة واصطبارًا، وسجَّلت حكومة الانتداب في تاريخ سياستها الخرقاء فشلًا رابعًا.

٥) تجاهل الأمر الواقع

هال السّلطة وحدة الأمَّة، واتّفاق كلمتها. وشعرت بأنَّها تقف أمام شعب جبَّار مستميت، لا يهتمّ بتهديد ولا ينصاع إلى وعيد، فقام وزير المستعمرات يعلن في مجلس العموم، عزم الحكومة على عدم التَّراجع عن سياستها الأنجلو - صهيونيَّة، سياسة التَّهويد والإجلاء؛ قصد إيقاع الشَّلل في الصُّفوف، وإطفاء جذوة الأمل في النُّفوس، فجاء عملها هذا ضغثًا على إبالة، وسجَّلت حكومة الانتداب في تاريخ سياستها الخرقاء فشلًا خامسًا!

٦) فتح ثغرة في الصُّفوف

صعب على السُّلطة أن تقف وحدها أمام إرادة الأمَّة، دون أن يكون في جانبها بعض الخوارج، تستأنس بهم، وتطمئنّ إليهم؛ لتقطع الشّجرة بغصن منها، فحاولت أن تفتح ثغرة في الأمَّة، تصل منها إلى هذا البناء المشمخر، ولم تفلح، فعادت متعثِّرة بأذيال الخيبة، وسجَّلت حكومة الانتداب في تاريخ سياستها الخرقاء فشلًا سادسًا!

٧) أعمال الإرهاق

ضاقت الحيل بالسُّلطة، فرحت تنفي زعماء البلاد للخارج، وتملأ السُّجون بالمعتقلين. تنسف البيوت وتفرض الغرامات، تدمّر الأثاث والمؤن تحت ستار التَّفتيش، وتعبث بحريَّات النَّاس بدعوى المحافظة على النِّظام، وأخيرًا، زادت الإرهاق بتشكيل محاكم عسكريَّة تحكم

عـلى الأبريـاء بالسِّـجن المؤبَّـد تـارة، وطـورًا بالإعـدام.

مضـت السُّـلطة في إجراءاتهـا هـذه بـلا هـوادة ولا رحمـة، ولكـنَّ الشَّـعب وقـف منهـا كلّهـا موقـف الصَّـبر وعـدم المبـالاة؛ وسـجَّلت حكومـة الانتـداب في تاريـخ سياسـتها الخرقـاء فشـلًا سـابعًا!

***

وهكـذا يثـور الشَّـعب العـربيّ المجاهـد ثـورة لم يسـبق لهـا مثيـل في بقعـة مـن بقـاع الأرض، ويصمـد، وهـو الـذي لا يزيـد عـدده عـلى ثلاثـة أربـاع المليـون، صمـد الجبابـرة أمـام قوَّتـين عظيمتـين جبَّارتـين تآمرتـا عـلى إفنائـه، هـما دولـة بريطانيـا العظمـى، والصّهيونيَّـة العالميَّـة، هـذه سـوس ينخـر في كيـان قوميَّتـه، وتلـك معـول يقـوّض بنـاء اسـتقلاله!

وحكومـة هـذه هـي وسـائلها في تعمـير البـلاد، وتدريـب سـكّانها عـلى الحكـم، جديـر بهـا أن تتخـلَّى عـن انتدابهـا عـلى فلسـطين وأن تـترك البـلاد لأصحابهـا الشَّرعيـين، إلَّا إذا كانـت تريـد قهرنـا بسـلاح الظُّلـم، وحينئـذ فسـننتصر عليهـا بقـوَّة الثَّبـات والإيمـان!

في المعركة!

أين الحُسَيْن ترى عيناه ثورتنا — والنَّفس منه مع الثُّوَّار تضطربُ
ما ثورةُ القدسِ إلَّا بنتُ ثورتِه — في مكَّة إنّها أمّ لها وأبُ

وديع البستاني

هذه سنة ثالثة تمرّ على ثورتنا نحن عربَ فِلَسطين، والاستعمار يمعن فينا عسفًا وإرهاقًا. هو ينكر علينا حقَّ الحياة في بلادنا، والإنكار في علم السِّياسة مباح، لا يتقيَّد بشرف، ولا يتمنطق بإنسانيَّة!

وما دمنا قد خضنا المعركة، فمن العار علينا أن نتقهقر، وألَّا نصمد لها حتَّى النّهاية، فإنَّ معركتنا هذه صراع بين الحقّ والباطل، حقّ العرب في المحافظة على كيانهم، وباطل الصّهيونيَّة في هدم هذا الكيان.

لقد أصبح كلّ منَّا جنديًّا في هذه المعركة، وعلى الجنديّ الشَّريف أن يتحمَّل آلام القيام بالواجب، آلام تطهّر نفوسنا من أدران العبوديَّة، وتخفِّف من عبء المسؤوليَّة العظمى الملقاة في أعناقنا أمام الجيل المقبل.

***

هو جهاد دعانا إليه الوطن فلبَّيناه، ولسنا عن نتيجته بمسؤولين!

يكفينا منه أن قد وحَّد كلمتنا، بعد أن كانت مجزَّأةً!

يكفينا منه أن قد جعلنا عائلة واحدة، بعد أن كنَّا بيتًا منقسمًا على نفسه!

يكفينا منه أن كان صومًا وطنيًّا قرَّبنا من حقِّنا السَّليب، كما يقرّب الصَّومُ المؤمنَ الواثقَ من الله!

إنَّنا أصحاب حقّ في جهادنا، وصاحب الحقّ يفكِّر في القيام بالواجب، قبل أن يفكِّر في النَّتائج!

إنَّ هذا الحقّ الذي في أيدينا يشبه عشبة «الباشمان» كلَّما شممناها أنعشتنا وخفَّفت آلامنا؛ لأنَّ فيها رائحة الموطن المحبوب.

***

إنَّ الرُّجوع إلى الوراء عار ما بعده عار، ووقف الجهاد في سبيل الحياة موت ما بعده موت!

ستزيد السُّلطة قوَّاتها في البلاد، وقد تعلن أيضًا أحكامها العرفيَّة، ولكنَّ هذا لا يرهبنا، وذاك لا يفت في عضدنا!

تستطيع بريطانيا العظمى أن تمحقنا بالحديد والنَّار، ولكن لا تستطيع أن تحول بيننا وبين الموت في سبيل الحياة!

إنَّ في دوام فتح أبواب بلادنا للهجرة اليهوديَّة معناه فناء لنا ولذرارينا من بعدنا، فإذا استطعنا وقفها كانت لنا الحياة، وإذا لم نستطع فالجلاء ينتظرنا على كلّ حال.

إنَّه خير للمرء أن يموت ميتة سريعة بشرف، من أن يموت ميتة بطيئة بذلّ وهوان!

***

والآن ...

انتبهوا إلى هذا أيُّها العرب والمسلمون في جميع بلاد العرب والإسلام!

أصغوا إلينا نحن عربَ فِلَسطين المكدودة أجسامهم، والمتألّمة نفوسهم، والمهدَّدون بالجلاء عن أوطانهم!

التفتوا إلينا نطلعكم على الأمر الواقع!

افتحوا آذانكم، نسمعكم الحقيقة المرَّة!

إنَّنا مسجونون في قفص حبك ضلوعه دهاء الإنجليز ومكر اليهود!

إنَّ هذا القفص موضوع في وسط حقل بلاد العروبة، الغنيّ بشعوبه، العظيم بملوكه وأمرائه!

إنَّ عرب فِلَسطين يصارعون عطش العطف وهم بالقرب من مجاري مياه العطف!

إنَّهم يغالبون جوع النَّجدة، وهم في أواسط حقول النَّجدة!

قد غدونا كالغنيّ الذي انغلقت عليه أبواب خزائنه المكدَّسة بالذَّهب، فمات جوعًا بين أكداس الذَّهب!

***

هذه هي الحقيقة المرَّة، نطلعكم عليها يا شعوب العرب والإسلام!

إنَّنا نرقب منكم نجدة!

ولكنَّنا لا نفكِّر في الاستسلام!

الوحـدة العربيَّة

والطُّـرق المؤدِّية إلى تحقيقها

الوحـدة العربيَّـة أمنيـة كلّ عـربيّ، وعـلى العـرب أن يعملـوا لهـا في جميـع أقطارهـم، لقـد كانـت هـذه الفكـرة حلـمًا قبـل عشريـن سـنةً خلـت، ولكنَّهـا أصبحـت الآن عقيـدة راسـخة، وهـي سـائرة في طريـق التَّحقيـق، بالرّغـم مـمَّا يعترضهـا مـن العقبـات السِّياسـيَّة والاجتماعيَّـة والاقتصاديَّـة، ودليلنـا عـلى ذلـك تضامـن الأقطـار العربيَّـة في الوقـت الحـاضر وانتصارهـا بعضًـا لبعـض لـدى كلّ ملمّـة تنـزل بـأيّ قطـر منهـا.

وعنـدي إنَّ الرَّابطـة القوميَّـة التـي تربـط الأقطـار العربيَّـة بعضهـا ببعـض، هـي التـي يصـحّ أن تقـوم عليهـا مسـاعينا في سـبيل تطوُّرنـا المحتـوم نحـو الوحـدة.

أمَّا الطُّـرق المؤدِّية إلى تحقيقها، فهي:

أ) توحيـد الثَّقافـة: بحيـث تصبـح أنـواع التَّفكيـر والحيـاة وأسـاليب الحكـم واحـدة في كلّ قطـر مـن الأقطـار العربيَّـة، ولنـا مـن لغتنـا وحضارتنـا وتاريخنـا مـا يسـاعدنا عـلى ذلـك.

ب) التَّعـاون الاقتصـادي: بحيـث يجـري تبـادل التّجـارة المحليَّـة بـين كلّ قطـر وآخـر، وتنشـيطها بالإقبـال عـلى اسـتهلاكها.

ج) التَّعـارف: وذلـك يقـوم عـلى تـزاور أبنـاء العروبـة بعضهـم بعضًـا، فتتقـوَّى روح الألفـة والتَّعـاون بينهـم.

أضف إلى ذلك ما يمتاز به العصر الحاضر من سهولة الاتِّصال وسرعته، وهو (في الواقع) أكبر مساعد على تحقيق هذه الأهداف الثَّلاثة.

وبالنَّظر لوجود النّفوذ الأجنبيّ المختلف في معظم الأقطار العربيَّة؛ ولأنَّ هذا النّفوذ يتعارض - في الوقت الحاضر - مع فكرة الوحدة العربية، فهذه الوحدة لا بدّ أن يسبقها أوّلًا تحالف عربيّ بين الأقطار العربيَّة المستقلَّة، مثل: العراق ومصر والحجاز واليمن، يتبعها بعد ذلك سورية المجزأة، ثمّ سورية الموحَّدة (بلاد الشام ولبنان وشرق الأردن وفلسطين). ثمَّ بلاد المغرب مثل: تونس والجزائر ومراكش وطرابلس التي تناضل الآن في سبيل حريَّتها واستقلالها.

وممَّا لا شكّ فيه أنَّه بقدر نجاحنا في توحيد الثَّقافة العربيَّة، والتَّعاون الاقتصاديّ، والتَّعارف (بالتَّزاور) بين الأقطار العربيَّة المذكورة، بقدر ذلك يتضاءل النُّفوذ الأجنبيّ فيها، فيساعدها في الحصول على استقلالها أوّلًا، ثمّ تحالفها مع بعضها البعض ثانيًا، وما أسرع ما تنضوي بعد ذلك تحت لواء الوحدة العربيّة المنشودة.

قد يقتضي لتحقيق الوحدة العربيَّة زمن ليس باليسير ولكنَّ حياة الأمم لا تُقاس بالسّنين.

انتهی

لقد مثّل النشر عبر العصور أداةً للتمدّد والاحتواء، وهو بذلك استطاع أن يمتلك قُدرة استثنائية على التجدّد والتنوّع في حركته وتحوّلاته التقنية، بدءًا من الإيماءة ومرورًا بالنقش ثم الطباعة على الورق، ليُشكّل بذلك ضوءًا مُتعدّد الطبقات، يَقبضُ بوميضه على أحاسيسنا المتغيّرة بفعل الزّمن.

إن تمدّدًا على هذا النّحو، يمكنه أن يقلّص المسافة، وأن يُجسّد حاجتنا إلى التنقّل عبر المحطات العابرة للتاريخ، بل يُثري تجاربنا في تشكيل القوالب الحيّة لذاكرة لا تغيب.

فتلك التحوّلات التي أنتجتها التكنولوجيا لم تأتِ صدفةً، إنها انبثاقُنا المبتكر نحو خلق الترابط مع الآخر في هذا العالم الوسيع.

ضمن تلك الرؤية، صمّمت وزارة الثقافة مشروعها نحو النشر الرقمي ليقينها بضرورة توسيع نطاق النّشر وإتاحته أمام أكبر عدد ممكن من الباحثين والدارسين والقُرّاء.

وزير الثقافة
عماد عبدالله حمدان

رقمنة
مشروع النشر الرقمي